طه حسين



# من أدبنا المعاصر

دار الآداب

مِنْ أُدَبِنَا المُعَاصِرِ

طه حسين

# مِن أدبنا المعاصر




دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى — نوفمبر ١٩٥٨
الطبعة الثانية — يناير ١٩٦٦

# هكذا خلقت

لست أدري أأهنىء صديقنا الدكتور محمد حسين هيكل برجوعه الى القصة أم أهنىء القصة برجوعه اليها، ولكني أعلم أن قراء الأدب النقي الصفو هم الجديرون بالتهنئة فقد أتاحت لهم عودة هيكل الى القصة بعد ان كان من السابقين اليها وبعد ان هجرها هجراً طويلاً غير جميل أتاحت لهم كتاباً رائعاً جديراً ان يقرأ وان يقرأ في أناة ومهل، وجديراً حين يقرأ ان يملك على قارئه أمره كله ووقته كله وملكاته كلها ايضاً .

فهيكل بارع في هذه القصة لا يتحدث فيها الى القلب والشعور وحدهما ولا يتحدث فيها الى العقل وحده، ولكنه يتحدث الى هذه الملكات كلها هي وملكات أخرى غيرها؛ يتحدث الى السمع بهذا اللفظ السهل العذب النقي البريء من التبذل والابتذال جميعاً، والبريء مع ذلك من

التعقيد والتكلف ومن هذا التصنع البغيض الذي مـا زال بعض الناس يشغفون به ويتورطون ويورطون غيرهم فيه، ويتحدث الى البعض بهذه الاوصاف البارعة لنجوم السماء حين ترسل سهامها المضيئة الى الارض وللشمس حين تغرب فتملأ كل شيء روعة وجمالاً وتأخذ على الناظرين اليها ابصارهم وعقولهم واذواقهم جميعاً، وللقمر حين يلقي ضوءه الهادىء المطمئن على النيل وعلى البحر وعلى الصحراء وعلى قمم الجبال وسفوحها.

وهو يتحدث الى الضمير حين يقيس اعمال الناس بما فيها من خير وشر وبما فيها من احسان الى الناس او اساءة اليهم وبما فيها من ارضاء للعقل وللشعور الديني، مجتمعين او متفرقين وهو من اجل هذه الاحاديث كلها لا يشغل بعض ملكات قارئه وانما يشغل ملكاته جميعاً، وهو من هذه الناحية مريح للقارىء ومتعب معاً، يريحه لانه لا يشغل بعض ملكاته عن بعضها الآخر ويتعبه لانه يأخذ القارىء فلا يرده الى نفسه والى ما يحيط به من الظروف والى ما يدعوه من شئون الحياة الا بعد ان يفرغ من قصته.

وقد قلت: انه يتحدث الى القلب والشعور واي حديث اقرب الى القلب والشعور من حديث الحب هذا الذي يشقى به صاحبه لما يثير في نفسه من الاهواء المتناقضة والعواطف المختلطة ويشقى به غيره لما ينغص عليه من

بياض ايامه وما يؤرق عليه من سواد لياليه، ويشقي القارىء نفسه لما يضطره اليه من العناء كل العناء حين يريد ان يهتدي في هذه الخصومات الملتوية العنيفه بين الوان العوطف وضروب الشعور. وقلت : انه يتحدث الى العقل واي حديث الى العقل اكثر متاعاً من حديث هذه القيم الكثيرة لاعمال الناس وملاءمتها للحق مرة ومخالفتها له مرة اخرى وموافقتها للعدل حينا وانحرافها عنه حيناً آخر وائتلافها مع القصد في اول النهار واندفاعها الى الجور المسرف في آخره واضطرابها هذا المتصل وتأثيرها بهذا الاضطراب في آراء الناس واحكامهم فيما يكون بينهم من الصلات بل فيما يكون بينهم وبين نفوسهم من صلات. وقلت : انه يتحدث الى الضمير واي حديث الى الضمير ادق وانفذ وامض في الوقت نفسه من محاسبة الانسان لنفسه في كل لحظة من لحظات حياته وتقدير الانسان لكل عمل من اعماله وكل لفظ من ألفاظه، وبما يمكن ان يكون لهذا اللفظ او لهذا العمل من اثر حسن او سيء قوي او ضعيف في نفوس غيره من الناس، واي حديث الى الضمير ادق وانفذ من حديث الدين حين يتخذه الانسان مقياساً لكل ما يصدر عنه من قول او فعل ولكل ما يضطرب في نفسه من تفكير او شعور، كل هذا تجده في الكتاب فتنعم به وتشقى به ايضاً تنعم به لأنه يمتعك وتشقى به لانه لا يخرجك من حيرة الا ليدخلك في حيرة اخرى ،

ولانه يضطرك الى ان تكون مشاركاً لأشخاصه حين يرضون وحين يسخطون وحين يثورون وحين يهدأون، ثم لا يعفيك الدكتور هيكل من ان تشرف من قرب على محاسبة هؤلاء الناس لأنفسهم واحتكامهم الى ضمائرهم فترضى عنهم مرة وتسخط عليهم مرة اخرى وتوافقهم الآن لتخالفهم بعد حين وتعطف عليهم في هذه الصفحة من صفحات الكتاب لتصب عليهم نقمتك بعد صفحتين او صفحات. واي غرابة في ذلك وقد قلت لك ان هذا الكتاب متعب مريح ومسعد مشق وممتع مثير، وانظر معي الى هذه الصبية التي تنشأ في بيت اسرة من اولي اليسار لا تعرف هذا الشقاء المألوف الذي يعرفه كثير من الناس شقاء البؤس والجوع والحرمان ولكنها معرضة لألوان من الشقاء ليست اقل منها ايذاء للنفس ولا تعذيباً للقلب تأتيها من هذه الحياة الناعمة نفسها ، فصبيتنا هذه مدللة بين ابويها هي وحيدتهما، وهي تنعم بحبهما كله، وعطفهما كله، وحنانهما كله لا يشاركها في ذلك أخ او اخت وهي لا تنعم بحب ابويها وحدهما ولكنها تنعم بالحب والبر من بعض اقاربها ايضاً ومن صديق الاسرة على اختلافهم ومن معلماتها واترابها حين تختلف الى المدرسة ثم هي لا تفتن بهذا النعيم ولا يدركها البطر او الاشر، ولكنها مقبلة على الدرس في نشاط وجهد وذكاء ولا تكاد تعرف الصلاة حتى تقبل عليها اقبالاً شديداً ثم لا تكتفي بأداء فرضها ولكنها تعنى

باداء الاتراب والمعلمات فروضهن فهي محتفلة بالمصلى في المدرسة تنفرد او توشك ان تنفرد بالقيام عليه فشعورها الديني قوي يملأ قلبها رضا، وعقلها ذكي يتيح لها التفوق في الدرس وهي مع هذا كله بارعة الجمال رائعة المنظر محببة الى كل من يراها وهي لا تكاد تنشأ وتشب حتى تعرف كل ما منحت من المزايا، تعرف جمالها وسحر عينيها وتعرف حديثها الى القلوب واختلاب حسنها للألباب، وتعرف ذكاءها واعجاب المعلمات والاتراب بها ويوشك بعض الغرور ان يستقر في نفسها . وانها لفي هذا كله واذا المحنة تفاجئها فأمها مريضة وإلحاح المرض عليها يشتد من يوم الى يوم واذا هي بعد حين تعرف الحزن اللاذع والألم الممض فقد فقدت امها واصبحت يتيمة يرعاها ابوها الذي مهما يكن حبه لها وبره بها فهو رجل لا يحسن القيام على تنشئة الفتيات، ولها عمة صالحة تقية تؤدي الصلوات، وقد حجت البيت وزارت قبر النبي الكريم ودفعها هذا كله الى امعان في الدين وهي قد اقبلت من الريف لتقوم على بيت اخيها وتعنى بأمر ابنته وهي تمنح الفتاة من حبها وعطفها شيئاً كثيراً، ولكنها في الوقت نفسه ترثي لاخيها من هذه الوحدة وتكره ان تنتقل ثروته يوماً ما الى من سيتخذ هذه الفتاة لنفسه زوجاً فهي تغري اخاها بالزواج بعد ان ادى للفقيدة حقها من الحزن عليها والوفاء لها، وما تزال تزين له الزواج وتلح عليه

فيه حتى تحببه اليه ، ثم تنتهي به الى ما تريد ، فقد رأت الفتاة في بيتها امرأة اخرى تقوم مقام امها وتشاركها في قلب ابيها وهي ضيقة بهذه الزواج الجديد ما في ذلك شك وقد اخذت تعرف الانطواء على نفسها والانفراد بآلامها والشعور بأن غيرها قد اعتدى عليها وسلبها بعض ما كانت تستأثر به من حب ابيها وهي قد منعت من الذهاب الى المدرسة وحجبت عن الناس واضطرت الى ان تقضي وقتها كله مع هذه الزوج التي لا تحبها ولا تجد عندها شيئاً من حب وان وجدت عندها كثيراً من التلطف والرفق، وقد اخذت تؤثر العزلة وتحب ان تخاو الى نفسها وربما استعانت بصلاتها والتمست فيها شيئاً من عزاء ولكنها شقية على كل حال وهي تفزع الى الموسيقى لتشغل نفسها عن نفسها وعن هذه التي غصبتها دار امها وقلب ابيها، ولكن اباها يرزق صبياً فتحار الفتاة بين الرضى بذلك والسخط عليه ويغلب حبها للصبي آخر الامر فتعنى به اشد العناية وتشغل به عن كثير من همها، والصبي يمرض ذات يوم ويدعى الطبيب فاذا شاب لا تنبو عنه عين الفتاة وانما تتصل به ثم تحب هذا الاتصال ، ثم ترقبه وتتمناه وينتهي الامر في كثير من التحليل والتعليل الى الخطبة ثم الى الزواج ونفرغ . من قصة الاسرة لنخلص لقصة هذا الحب الجديد الذي يحلو الى اقصى ما يستطيع الحب ان يحلو ويمر الى ابعد ما يستطيع الحب ان يبلغ

من المرارة ويلين حتى يجعل الحياة نعيماً خالصاً ويعنف حتى يحيل الحياة عذاباً أليماً ولست مستطيعاً ان اتبع هذه الفتاة بعد ان اصبحت زوجاً فيما تقص من حياتها فهيكل لا يحدثنا عن بطلته، وانما ينقل الينا حديثها عن نفسها. فحديثها طويل ممعن في الطول دقيق ممعن في الدقة بطيء ملح في البطء مفصل مسرف في التفصيل، ولكنها على كل حال قد احبت زوجها واحبها زوجها اصدق الحب واصفاه وأعذبه وأمره في وقت واحد، ورزقت منه طفلين صبية وغلاماً، ونحن نعرف ان زوجها طبيب وانه طبيب ممتاز، ولكن صاحبتنا طموح مؤمنة بنفسها معجبة بنضرتها مقتنعة بسحر عينيها وسحر حديثها، تواقة الى ان تبهر الناس بهذه الخصال جميعاً وهي تود لو انصرف زوجها عن صناعة الطب الى السلك السياسي لتزدان بهـا هذه السفارة او تلك السفارات المصرية فيما وراء البحر خاصة، وزوجها محب لطبه حريص عليه فيكون بينهما اذن اول اختلاف ينتصر فيه زوجها وتذعن هي لهذا الانتصار ولكن ضميرها الخفي قد اسر في اعماقه هذه الهزيمة وضاق بها اشد الضيق، وهي كلفة بالاسفار يأنس ذلك زوجها منها فيرضيها بما ينظم لها من الاسفار المختلفة مرة معه ومرة وحدها لا يصحبها الا الصبيان والمربيات، وهي تذهب حيناً الى الاقصر وحينا الى اوربا وهي في بعض اسفارها تحس افتتان الناس وهيامهم بسحرها فيرضيها ذلك اعمق الرضى

ويخيفها مع ذلك اشد الخوف لانها تحب زوجها مخلصة له وتكبر نفسها عن الزلل، ولكنها مغرورة بحسنها وسحرها مكبرة لنفسها اشد الاكبار ترى في تملق الناس اياها واعجابهم بها وافتتانهم بها شيئاً طبيعياً لا تكلف فيه بل ترى هذا حقاً لها فهي انما خلقت لتفتن بجمالها وتسحر بلحظها ولفظها جميعاً، وهي راضية كل الرضى محتاطة اشد الاحتياط لانها لقيت رجلين في الاقصر احدهما الماني هام بها هيام العقلاء الذين يعرفون كيف يملكون نفوسهم والآخر مصري هام بها هيام الضعفاء الذين تعرف اهواؤهم كيف تملكهم وكيف تتسلط عليهم! لقيت هذين الرجلين مع صديقة لها كانت تشتو مثلها في الاقصر فلم تعد من مشتاها الا وقد بلغت بعض ما تريد من الظفر بالاكبار والاعجاب والثناء وزوجها يبذل كل ما يستطيع واكثر مما يستطيع ليرضيها، لا يتردد في ان يستدين ويسرف في الاستدانة ليتيح لها الحياة الرياضية التي تطمح اليها وليتيح للصبيين ما ينبغي لهما من نعمة ولين، ولكنه مقصر مهما يفعل لأنها ترى نفسها اهلاً لأكثر مما يقدم اليها، والتقصير الخطير الذي يفسد على الزوجين امرهما يأتي من ان زوج هذه المرأة واثق بها كل الثقة مطمئن اليها كل الاطمئنان فهو لا يغار عليها بل هو لا يغلو في اظهار الاعجاب بجمالها والافتتان بسحرها فهي اذن مريضة بحب الاعجاب لانها مريضة بالغرور، وهي تبذل كثيراً من الجهد لتثير

الغيرة في نفس زوجها فلا تستطيع فيملؤها ذلك حفيظة وغيظاً ثم لا تلبث الايام ان تكشف لها ولزوجها عن مرض آخر في نفسها وهو الغيرة فزوجها لا يعجب بها كما ينبغي ولكنها لا تطيق ان تظهر امرأة لزوجها شيئاً من الرضى عنه او العناية به، بل هي لا تطيق ان تظهر غيرها شيئاً من العناية برجل تعرفه وانما تريد ان يكون الرجال كلهم لها عباداً وبها معجبين يفتنون بها وحدها لا يشركون بها امرأة اخرى وقد ارادت الظروف ان تتهم صديقتها تلك التي لقيتها في الاقصر وان يشغل زوجها وصديق له بأمر هذه الأيم واستخلاص ميراثها وميراث ابنائها من اسرة زوجها الفقيد، فتستأثر بها غيرة منكرة تفسد عليها حياتها كلها وتدفعها الى شر عظيم فقد عرفت ذات يوم ان صديق زوجها قد يتزوج هذه الأيم، فما تزال تسعى حتى تفسد هذا الزواج وتقطع الصلة بين الصديق وهذه المرأة وهي تحاول ما استطاعت ان تصرف زوجها عن العناية بأمر هذه الأيم وبنيها فلا توفق، يلح الزوج في البر والوفاء ويجن غرورها وتضطرم غيرتها اضطراماً وينتهي الامر الى القطيعة بين الصديقين ثم ينتهي الى هجرها منزل زوجها بل هجرها لمدينة القاهرة والحياة في الاسكندرية ليكون المزار بينها وبين زوجها بعيداً وزوجها على ذلك كله رفيق بها محب لها ممعن في اكرامها مغدق للمال عليها ، ولكنه كلما امعن في العناية بها امعنت هي في النفور منه وهي لا تتحرج

من اهانته بمشهد من الناس وهي لا تتحرج من توسيط صديقه ليظفر منه لها بالطلاق وهي لا تحفل بنصح هـذا الصديق ولا بلوم ضميرها لها بين حين وحين ولا بمستقبل ابنيها ، قد ركبت رأسها ومضت في القطيعة لا تلوي على شيء والغريب انها تعرف بين حين وحين انها ظالمة متجنية ولكن هذا كله لا يزيدها الا عناداً واصراراً وهي تنتهي الى ما تريد فتظفر بالطلاق على كره من زوجها البائس الذي طلقها لأنه يحبها ولا يريد ان تشقى وهو حي ، ولكن جنون الغرور لا يقنعها بما انتهت اليه وانما يطمعها فيما ليس اليه سبيل ، يطمعها في ان تقطع كل صلة بينها وبين زوجها وكل صلة بين هذين الصبيين وبين ابيهما وما تزال بصديقها ذلك حتى تسحره كما سحرت غيره من قبل ، واذا هو يصبح لها زوجاً ، وهي تريد على رغم ذلك ان تستأثر بالصبيين من دون ابيهما فاذا حكم القضاء بردهما اليه صارت الى المذلة والخنوع وجعلت تتوسل الى زوجها الأول بمختلف الوسائل ليعدل عن الالحاح في تنفيذ الحكم ، والرجل على رغم هذا كله محب لها رفيق بها فهو يجيبها الى ما تريد ويترك لها الصبيين ويرسل اليهـا نفقتهما مع ذلك في نظام ، وقد فسدت حياة هذا الرجل فساداً منكراً ، فساءت حاله المالية ، وزهد في ممارسة الطب ، ثم جعل السقم والهم يعبثان بصحته حتى أظلته الساعة الأخيرة وهو مشرف على الموت ، وهو على رغم

ذلك يريد ان يلقى مطلقته ليراها ويسمع منها العفو عنه قبل ان يموت ، ولكنه لا يظفر حتى بذلك فيقضي دون ان يراهـــا ودون ان يسمع منها كلمة العفو ولا ينتهي غرورها وغيرتها الى هذا الحد البغيض بل هي تأبى الا ان تقطع نسب الصبيين بأبيهما وتحمل زوجها الجديد على ان يتبناهما ولكن لكل شيء غاية وليس بد للظلم من ان يشقى به الظالمون ، وما اسرع ما تأتي ساعة العقاب فقد بلغ الفتيان رشدهمـــا وحرصا اشد الحرص على ان يعودا الى نسبهما ويعرفا أباهما ، وقد فعلا ، وهذه المرأة مضطربة لهذه الأحداث الكثيرة الثقيلة التي اختلفت عليها فهي شقية في اليقظة مروعة في النوم وهي تعود الى صلاتها ودينها ممعنة في التقوى حتى تنهض بأداء الحج وقد تزوج ابناها فتمضي الى حجها ولا تكاد تحرم وتبلغ الحجاز حتى يأخذها شيء يوشك ان يكون انجذاباً واذا هي عرضة للأحلام تصنع بها ما تشاء والغريب ان احلامها تصدق . وهي قد اخلصت نفسها لله وبرئت من آثامها كلها ثم زارت المدينة فجنت تقواها كما جن غرورها وتقواها من قبل ، فهي لا تريد ان تعود الى مصر وانما تريد ان تجاور في المدينة لتنعم بالقرب من صاحبها العظيم ولتؤدي صلواته في مسجده المطهر ولتخلص لله وحده من الأحياء والأشياء ومن نفسها ان استطاعت ان تخلص من نفسها ولكنها تضطر بعد خطوب الى ان تعود الى القاهرة لأن زوجها مشرف على الموت ،

ولا تكاد تبلغ القاهرة حتى تفقده فهي اذن قد آمت وعرفت الحزن وفقدت زوجيها جميعاً والغريب انها احبتهما جميعاً بعد موتهما فهي تزور قبريهما وتضع عليهما الزهر وتتصدق عليهما جميعاً . وهي جديرة ان تفرغ لما كانت قد اخذت فيه من التقوى والايمان والمجاورة في مدينة النبي الكريم ، وقد همت بذلك لولا ان ابنيها كليهما قد رزقا الولد فشغلت بأحفادها وانتقلت من الامعان في الدين والعبادة الى الامعان في الحكمة والتدبر في الأحداث وما تجره على الناس من الخطوب وصورت لنا ذلك في خاتمة قصتها .

ولذلك لخصت لك هذه القصة تلخيصاً مخلاً ولو قد اردت تلخيصاً دقيقاً لاستأثرت بهذا العدد كله من دون كتاب الأدباء ولكني بعد هذا التلخيص لا اتردد على رغم اعجابي بالقصة واستمتاعي بها واطمئناني الى ان القراء سيستمتعون بها كما استمتعت وسيرضون عنها كما رضيت لا اتردد في ان اقف عند بعض الملاحظات وقفات قصاراً جداً ؛ ففي هذه القصة بطء مسرف وتفصيل قد يدعو الى شيء من السأم فالكاتب لا يعفينا من الجزئيات التي لا نحتاج اليها مطلقاً وهو لا يعفينا من كلمة فضلاً عن ان يعفينا من جملة او فصل وبطلته حين تتحدث عن نفسها لا يكفيها ان تنبئنا بأنها أوت الى غرفتها حين تريد ان تستريح او حين تكون متكلفة للحاجة الى الراحة ولكنها تنبئنا بأنها ذهبت الى غرفتها وخلعت ثيابها ولبست قميصاً

واستلقت في سريرها ، وأنا افهم هذا التفصيل حين تدعو الحاجة اليه في بعض المواطن عندما تريد مثلاً ان تتزين لنومها لسريرها لتفتن من يزورها في غرفتها الخاصة ، وهي قد فعلت ذلك غير مرة مقلدة فيه امريكية عرفتها في بعض الفنادق الأوروبية .

وهذا الاسراف في التفصيل ليس قليلاً ولكنه منثور في القصة كلها ولو قد أعرض عنه الكاتب وفصل في موضع التفصيل وأجمل في موضع الاجمال لكان في ذلك جمال للكتاب واختصار لطوله ايضاً .

وملاحظة اخرى لست ادري أمخطىء انا فيها ام مصيب ورجال القانون وصديقنا هيكل منهم يستطيعون ان يدلوني على موضع الصواب من هذه الملاحظة فقد رأيت آنفاً ان هذه السيدة أرادت ان تقطع كل صلة بينها وبين زوجها الأول وألجأها ذلك الى ان تغير نسب ابنيها وتحمل زوجها الثاني على ان يتبناهما بعد ان توفي ابوهما وانهما عادا الى نسبهما حين بلغا رشدهما ؛ والذي اعرفه ان الاسلام قد محا هذا النوع من التبني الذي كان معروفاً في الجاهلية ، وان الله عز وجل يقول : وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم . والله ألغى بهاتين الآيتين تبني نبيه الكريم لمولاه زيد بن حارثة وأنا اعلم ان هذه السيدة مسلمة تقية

تمعن في التقوى بين حين وحين ، ولكني لا ادري أخالفت مصر في قوانينها المدنية المعاصرة عن هذا الأصل من اصول الاسلام ام لم تخالف فان تكن الأولى فقد اصابت هذه السيدة من الناحية المدنية الخالصة ولكنها تجاوزت حدود الدين تمعن فيه ، وان تكن الثانية فكيف استباحت لنفسها وكيف استباح زوجها الثاني لنفسه وكيف استباح القضاء المصري لنفسه ايضاً المخالفة الصريحة عن حكم الدين والقانون جميعاً .

وأكاد اعتقد ان صديقنا لم يقف عند هذا الموضوع وانما اندفع في تصوير جنون الغرور والغيرة حتى ألهاه ذلك عن ملاحظة الحقائق الواقعة في احكام الدين من غير شك وفي احكام القانون ان لم تكن مصر قد خالفت في القانون عن أمر الدين .

وملاحظة ثالثة تتصل بهذه الجذبة التي اصابت هذه السيدة حتى دفعتها الى ما دفعت اليه حين حجت الى البيت وزارت المدينة وانقلبت او كادت تنقلب ولية من أولياء الله الصالحين .

ثم ردت بعد ذلك الى الحياة المألوفة في غير تكلف ولا مشقة بل ردت في خاتمة قصتها الى شيء من الشك المريب في حقائق الدين نفسه .

أيرى صديقنا هيكل ان هذا يستقيم لامرأة لها حظ من عقل ام هو يريد ان يصور ما اصاب هذه المرأة من شيء يشبه الجنون فيما تأتي وما تدع . وكم كنت اود لو

لم يجعل هيكل لجنون هذه المرأة سبيلاً الى الامعان في الدين مرة والانحراف عنه مرة اخرى واستأذن صديقي في ان ألفته في رفق كل الرفق الى انه قد نسي هذه السيدة نسياناً تاماً حين كتب خاتمة قصتها فهذه الخاتمة لا تصور سيدة وانما تصور كاتباً مفكراً مالكاً لأمره كله يفلسف الأحداث وحقائق الحياة الواقعة ويشك فيما يسميه الناس العبرة شكاً يهيء له اسبابه ووسائله والأدلة على صدقه وصحته ان جاز ان تقام الأدلة على الشك ، وهذا الكاتب الذي يفكر ويفلسف ولا يكتفي بالشك بل يغري به اغراء يشبه صديقنا هيكلاً شبهاً قريباً جداً ، وقد كنت احب ان ينسى الكاتب نفسه في خاتمة القصة كما نسي نفسه في اكثر اجزائهـــا فأحسن نسيانها . وملاحظة اخيرة اذكرها ولا اقف عندها وهي ان صديقي هيكلاً لم يرد ان يخلف ظني به فيما يظهر فقد كنت أغيظه ايام الشباب بأنه يهمل الاحتياط للغة العربية بين حين وحين وكان يرد علي بأني انا لا احسن العربية ولا أجيد كتابتها ، وهو قد وفى بحقي عليه فانه يهمل في غير موضع حق اللغة ليتيح لي ان اذكره بأيام الشباب ، ومن يدري لعله يحمل هذا الاهمال على خطأ المطبعة وتقصير المصححين وما اكثر ما يحمل على المطابع والمصححين وهو على كل حال لا يستطيع ان يحمل على المطبعة ولا على المصححين اسرافه في استعمال اسم الاشارة الذي طال ما عبثت به من اجله لأني أراه منافراً بعض الشيء للذوق

المصري الحديث وهو هاتيك وما اكثر هاتيك في قصة هيكل ، ولو قد وضع مكانها هذه او تلك لكان له في احدي هاتين الكلمتين مقنع وغناء .

اما بعد فكل هذه الملاحظات لا تغض من قدر الكتاب ولا تنقص من قيمته الفنية ولا تزهد محباً للفن ومشغوفاً بالأدب الجديد بهذا الاسم في ان يقرأه حفياً به حريصاً على الاستمتاع بدقائقه . والشيء الذي استطيع ان أؤكده مطمئناً هو ان قاريء هذا الكتاب لن يفرغ من قراءته الا راضياً مغتبطاً راجياً ان يمتعه هيكل بين حين وحين بقصة تشبه هذه القصة .

# واقعيّون

ولكنهم يفهمون مذهبهم على نحو مريح لا يكلفهم جهداً ولا عناء وانما يغريهم بالنقل والتسجيل وهم وادعون لا يحسون شيئاً من هذا العذاب الذي يعرفه ويشقى به الأديب الحق ، حين تعرض له صورة من الصور فيريد أن يؤديها اليك حرة حية قوية تقع في نفسك فتحدث فيها أثراً مثلها حراً حياً قوياً يغريك بالأمل والعمل أو يدفعك الى شقاء اليأس والاستسلام يملك عليك أمرك حين تقرؤه ويلزمك ساعات طوالاً وقد يلزمك أياماً طوالاً لأنه صادف من نفسك حاجة اليه فاستأثر بها . لا يجدون هذا العذاب الذي يجده الأديب الحق حين تعرض له هذه الصورة فيريد ان يؤديها اليك على هذا النحو ليوجهك الى ما يريد أن يوجهك اليه . ولكنه يجدها عصية أبية لا تستجيب له في يسر ولا تسلم اليه قيادها الا بعد طول

الجد والكد وبذل الجهد الطويل الثقيل . فهو يساورها ويداورها . يريد ان يظفر بها ويذللها للغته او يذلل لها لغته . فكلما خيل اليه أنها قد أصبحت طيعة قريبة المنال وهمّ أن يضع يده عليها أفلتت منه وارتدت اليه يده خالية لا شيء فيها . وما يزال في المساورة والمداورة وفي المحاولة والمطاولة حتى يبلغها وما كاد . كذلك يفعل الأديب الحق . وكذلك يشقى بأدبه ولكنه شقاء خير من السعادة لأنه مليء بالجهد ومليء بالنجح أيضاً ، ولأنه حين يملك صورها التي يعرضها عليك واثق بأنه سيملكك وسيملك أمثالك من قرائه لا أثناء القراءة فحسب بل بعد القراءة بأزمان طوال . ولكن أصحابنا لا يعرفون هذا الشقاء ولا يحبون أن يعرفوه فهو يناقض طبائعهم التي لا تحب الثقل وانما تحب الخفة ولا تألف الضيق وانما تألف السعة ولا تميل الى العناء وانما تميل الى الدعة . نشأوا على الكلام اليسير يقدم اليهم في يسر فيقرؤونه في يسر ويتخففون منه في يسر ثم يستأنفون حياتهم كأن شيئاً لم يقدم اليهم وكأنهم لم يقرأوا شيئاً .

فما يمنعهم ان يكتبوا كلاماً يسيراً كهذا الكلام اليسير الذي يقرؤونه في كل يوم وتقرؤه آلاف مؤلفة مثلهم في كل يوم ، ثم ينسونه كما تنساه الآلاف المؤلفة لا يجدون في ذلك مشقة ، ولا يحتملون فيه جهداً ، وانما هي أقلام تجري وصحف تجمع ثم تقدم الى الناس فتقرأ وتنسى

صحف الصباح وصحف المساء .

أعرفت هؤلاء السادة أم لم تعرفهم بعد وما زلت في حاجة الى أن أقدمهم اليك ! انهم الواقعيون الذين يملأون عليك مصر ضجيجاً وعجيجاً وأخذاً ورداً واختلافاً وائتلافاً في هذه الأيام . وما أحب أن يغضبوا فليس أبغض اليّ من أن أسوءهم أو أشق عليهم . وأنا أعرفهم رقاقاً دقاقاً يؤثرون اللين ولا يحتملون الشدة يؤذيهم أيسر القول ويحسبون كل صيحة عليهم هو العدو . ولكن ما الحيلة وقد حاولنا معهم الرفق عليهم ولا علينا شيئاً . ظلوا على واقعيتهم هذه التي لا صلة بينها وبين الفن الا بمقدار ما تكون الصلة بين أحاديث الناس في الشوارع والطرقات وبين الفن .

ما أكثر ما تحدثت الى الأفراد والجماعات منهم بأن التصوير الفني وبأن الأديب الحق ليس أداة من هذه الأدوات التي نسميها الفونوغراف والتي تسجل الأصوات مهما تكن فلم يحفلوا بذلك ولم يأبهوا له ولم يلقوا اليه بالاً لأنهم لا يريدون أن يتكلفوا مشقة ولا أن يحتملوا عناء ولا أن يبذلوا جهداً وانما يريدون أن يمضوا على سيرتهم هذه كما تمضي الأيام والليالي على سيرتهما منذ كانت الأيام والليالي . فيمَ يتكلفون استنباط الماء من أعماق الأرض والنيل منهم قريب يستطيعون أن يمدوا اليه أيديهم ويغترفوا منه ماء كثيراً يقدمونه الى الناس غير حافلين بأن ماء النيل يجب أن يصفى قبل أن يقدم الى الشاربين .

وكان القدماء يتحدثون عن شاعرين قديمين بأن أحدهما كان يغرف من البحر وأن آخرهما كان ينحت من صخر. وكانوا يريدون أن أحدهما كان سهل الطبع سمح الملكة تستجيب له أوابد الشعر اذا دعاها لا تكلفه ابعاداً في السعي اليها وأن آخرهما كان عسير الطبع بطيء الملكة وكانت أوابد الشعر تعصيه وتأبى عليه فيجد في أثرها ويأخذها بالعنف أحياناً وبالحيلة أحياناً أخرى . وكان لفظ أولهما سهلاً سمحاً ولفظ ثانيهما صعباً مبهماً وكان أولهما يعرض الصورة الغريبة في اللفظ القريب وكان ثانيهما يعرض الصورة القريبة في اللفظ الغريب فأما الآن فيجب أن يتغير معنى هذا الحديث الذي كان القدماء يتحدثون به عن الشاعرين القديمين. فالذين يغترفون من البحر او النهر في هذه الأيام لا يؤدون اليك مثل ما كان يؤديه ذلك الشاعر العظيم حين كان يغترف من بحره لأن بحره كان صفواً رائقاً لا كدر فيه . وأصحابنا يغرفون من أنهار وبحار يملؤها ما شاء الله أن يملأها من الكدر والغثاء .

فأما النحت من صخر فلا يكاد يوجد في هذه الأيام لأننا نعيش في عصر مترف أخص مزاياه أن الحياة قد يسرت على الذين يعيشون فيه فقرب اليهم بعيدها ولين لهم شديدها وأصبحت لا تكلف أكثر الناس الا أقل الجهد .

وأغرب ما في الأمر أن الشاعرين القديمين اللذين كان

أحدهما يغرف من البحر وآخرهما ينحت من الصخر كانا جميعاً واقعيين : لا يعيشان في السحاب ، ولا يحاولان اصطياد العنقاء ، ولا يتحدثان الى الناس الا بما كان منهم قريباً يرونه بأعينهم ويسمعونه بآذانهم ويلمسونه بأيديهم ، ولم تضطرهما الواقعية مع ذلك الى ان يسفوا ولا أن ينظموا الشعر من أحاديث العامة في الشوارع وانما أديا الى الناس صوراً رائعة في ألفاظ بارعة وكلف بهما الناس أشد الكلف وذاقوهما كل الذوق ، وهما قد أسرفا في الواقعية أحياناً فقالا كلاماً يأخذنا الحياء حين نقرؤه ويعجزنا الحياء عن أن ننشده جهرة في هذه الأيام لتغير الأذواق واختلاف الطباع . وكان الشعراء الذين عاصروهما واقعيين أيضاً . عاشوا مع الناس واشتقوا شعرهم من لب الحياة التي كان الناس يحيونها .

وقل مثل ذلك في الذين كانوا يخطبون وفي الذين كانوا يكتبون . كان أدبنا العربي القديم واقعياً قريباً من الناس مشتقاً من حياتهم حتى قال فيه القائلون من أهل الغرب انه كان قليل الحظ من الخيال لأن أدباءنا من العرب القدماء لم يبعدوا ولم يعيشوا في السماء وانما عاشوا في الأرض كما عاش فيها غيرهم من الناس . وأشد من هذا كله غرابة أن هذه الواقعية لم تقصر على العرب وانما عرفها الأدباء من شعراء اليونان والرومان وخطبائهم

وكتابهم ، فأتيح لهم مثل ما أتيح لأدباء العرب من البقاء والخلود .

وعرف المحدثون من أدباء الغرب هذه الواقعية فصوروا للناس حياتهم التي يحيونها في فن رائع بارع بريء من الاسفاف والابتذال ، فأما واقعيتنا نحن الجديدة فهي بدع من واقعية الأمم المختلفة قديمها وحديثها شرقيها وغربيها لأن أصحابها لم يريدوا أن يكونوا أصحاب فن وأدب وانما أرادوا أن يكونوا أصحاب تصوير وتسجيل بأداة الفوتوغرافيا وأداة الفونوغراف . ذلك أقرب اليهم وأيسر عليهم وهو كذلك أقرب الى القراء وأيسر عليهم ولكنه بعيد عن الأدب كل البعد، لن يكون له حظ من شيوع ولن يكون له حظ من بقاء .

لن يشيع الا أن ينقل الى لهجات الأمم العربية المختلفة ولهجات الأقاليم المصرية المختلفة أيضاً ، ولن يبقى لأن حسن ظننا بمصر يملأ قلوبنا ثقة بأنها ستتعلم بعد جهل وستقوى بعد ضعف وسترقى بعد انحطاط وسيأتي عليها يوم قريب او بعيد تعرف فيه الأدب الحق وتنبذ فيه الأدب الذي زيف على بعض أجيالها تزييفاً .

وسيؤرخ الأدب في مصر غداً أو بعد غد وسيكتشف الذين يؤرخونه أن جيلاً من المصريين أحب الكسل وأنس الى الراحة والدعة وأراد مع ذلك أن ينال بالكسل والراحة ما لا ينال الا بالجد والكد والعناء فكتب، كلاماً ظنه أدباً

وقرأه الناس لأنهم لم يجدوا غيره شيئاً يقرأونه . وسيقرر هؤلاء المؤرخون أن مصر عاشت وقتاً طويلاً او قصيراً وليس فيها من الأدب الحق الا القليل .

وسيثبت المؤرخون أن مصر عاشت حيناً من الدهر طويلاً او قصيراً كانت لغتها الرسمية فيه هي اللغة العربية، وكانت لغتها بحكم الدستور هي اللغة العربية . ولكن فريقاً من كتابها كانوا يصطنعون رطانة تقارب العربية وليست منها لأنهم لم يكلفوا أنفسهم أن يتعلموا الأداة الأولى للأدب وهي لغته ولأن تعلم هذه اللغة كان عسيراً يفرض على الذين يريدون أن يعرفوها جداً وكداً وعناء ولأن الدولة لم تحاول ان تيسر تعليم هذه اللغة وتقربه الى الناس. فضاع الأدب عند جماعة من المصريين لتقصير الدولة من جهة وقصور الشباب من جهة أخرى .

وأمر الواقعيين هؤلاء لا يقف عند اللغة وحدها ولكنه يتجاوزها الى المعاني او الى المضمون كما يحبون ان يقولوا . فأكثرهم متشائم سيء الظن بالحياة والأحياء مظلم النفس اذا تحدث الى الناس في كلام مكتوب عمداً . فحياة كثير من هؤلاء الواقعيين وأحاديثهم التي لا يكتبونها ليست متشائمة ولا مظلمة فهم يلقونك ويلقي بعضهم بعضاً فتجري أحاديثهم كما تجري أحاديث الناس فيها ما يرضي وما يسخط وفيها ما يسر وما يسوء . وربما شاع فيها المرح حين تريد الظروف ان يكون المتحدثون مـ[illegible]

كغيرهم من المصريين المعاصرين يأخذون الحياة غير ضيقين بها ولا زاهدين فيها ولا يائسين منها . فاذا جرت أقلامهم على الصحف تغير هذا كله وأظلمت الحياة اظلاماً قاتماً بعد ان كان النور يشيع فيها بين حين وحين فيمنحها شيئاً من الاشراق ، وتسلط الشر على كل شيء بعد ان كانت صراعاً بين الخير والشر .

وكذلك يحيا الواقعيون من شبابنا حياة متناقضة يشتد ظلامها حين يكتبون ويلم بها النور اذا تركوا القلم والقرطاس وهم مؤمنون بهذه الواقعية ، مؤمنون بأنهم فيها صادقون ينتجون ادباً صادقاً . مثلهم في ذلك مثل صاحب الأداة الفوتوغرافية الذي يعيش كما يعيش غيره من الناس ولكنه لا يسلط أداته الا على ما يحزن ويسوء من مظاهر الحياة المظلمة المؤلمة .

أو مثلهم في ذلك مثل الممثل الذي يظهر في المأساة بائساً يائساً محزوناً مكلوم الفـؤاد مفرق النفس ، فاذا انصرف عن الملعب او استراح بين فصل وفصل استأنف حياته كما يعرفها فيها الرضى والسخط وفيها الفرح والحزن وفيها الابتهاج والاكتئاب . ومثل الممثل في الكوميديا يظهر في الملعب فيغرقك في الضحك الى أذنيك وربما تراه بعيداً عن الملعب يحيا حياته اليومية فيملأ قلبك لوعة وأسى .

كتابنا الواقعيون اذن يصطنعون واقعيتهم هذه اصطناعاً ولا يشتقونها من طبائعهم وهم مع ذلك يرون هذا صدقاً

في الفن . وليس هذا من الصدق في شيء كما أنه ليس من الفن في شيء كما رأيت آنفاً .

هذا كلام ثقيل سيقرؤه فريق الواقعيين فيضيقون به أشد الضيق وسيضيفون الي من الجرائم والآثام ما تعودوا أن يضيفوه الى الذين يقولون فيهم ما لا يحبون . ومعذرتي اليهم أني لا أصدر في هذه القسوة الا عن رفق بهم وايثار لهم بالخير ايضاً .

وسيقرؤه فريق آخر من الواقعيين فيرضون عنه كل الرضا لأنهم يؤمنون بمثل ما اؤمن به ولكنهم يؤثرون العافية فيسكتون عما لا احب السكوت عنه . والله يعلم أمخطئون هم أم مصيبون ! فأما انا فقد ألفت ألا أوثر العافية حين أرى طريق الخير وآثرت ان أكون كما قال الشاعر القديم :

وما أدري اذا يممت أمراً    أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه    أم الشر الذي هو يبتغيني

# التجديد في الشعر

لم نفرغ بعد ويظهر اننا لن نفرغ في وقت قريب من مشكلة العامية والفصحى وما يتصل بها من هذه الواقعية التي يعتذر بها أصحابهـــا عن الكسل والقصور ؛ الكسل الذي يحول دون القراءة والتفقه واتقان أداة التعبير والتصوير والأخذ بأسباب الأدب الرفيع . فلم نكد ندعو كتابنا من الشباب الى ان يعرفوا لأنفسهم حقها في الجد والأنـــاة والبحث والدرس والاستقصاء والاتقان والارتفاع الى ما يليق بهم وبوطنهم وبما ينبغي له من أدب رفيع ممتاز منزه عن الابتذال مبرأ من هـــذا السخف الكثير الذي يشيع فيــه حتى ثار ثائرهم وأخذتهم العزة بالاثم فجحدوا كل حق وأنكروا كل عارفة ، وتلقونا وتلقوا غيرنا من الذين لم يعرضوا لهم ولم يفكروا فيهم بما استطاعوا من ألوان المساءة وضروب الأذى . وقال قائلهم اننا قد انحرفنا عن المصرية

وجهلنا حق وطننا علينا والتمسنا أدبنا في بطــون الكتب وأعماق العصور التي انقضى عهدها والتي لا تمس المصرية الحديثة من قرب او بعد ولهم الشكر مع ذلك على أنهم عرفوا لكاتب مثلي انه أصدر كتاب الأيام فكان فيه مصرياً ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن انحرف عن هذه المصرية الى بطون الاسفار وأعماق الكتب يلتمس فيها أدباً لا يغني عن المصريين شيئاً . كأن الذي أصدر كتاب الأيام لم يصدر كتباً أخرى غيره تصور الحياة المصرية على اختلاف ألوانها وطبقات اصحابها وكأنه لم ينفق حياته معلماً لأجيال من المصريين يثقف عقولهم ويفتح لهم أبواباً الى التفكير الحر المستقيم ، وكأنه لم ينفق حياته كاتباً للأحاديث التي تحصى بالألوف الكثيرة من صميم الحياة المصرية ومظاهرها المختلفة من أدب ودين ومن سياسة واجتماع . وكأن زملاءه الذين نالهم مثل ما ناله من القذف بالانحراف عن المصريـــة لم يصنعوا صنيعه ولم يتركوا آثاراً مثل آثاره أو خيراً منها . وأطرف ما في الأمر ان هؤلاء السادة لا يريدون بشيوخهم شراً ولا يعمدون اليهم بأذى وانما جهلوا وسائل التعبير الصحيح الدقيق فآذوا شيوخهم من حيث لا يريدون وأطلقوا ألسنتهم واقلامهم فأرسلت كلاماً يقال في غير طائل ولا يصور ما في قلوبهم ولا يعرب عن ذات نفوسهم وانما هي ألفاظ يقولونها ويكتبونها ولا يحققونها لأنهم لا يعرفون لغتهم ولا يحسنون تصريفها فيما بريدون اليه من القول .

فما ينبغي ان نلومهم ولا ان نعتب عليهم ولا أن نأخذهم بما انطلقت به ألسنة جائرة عن القصد وما جرت به أقلام منحرفة لا عن المصرية بل عن الأدب الجديد بأن يسمى أدباً وننصح لهم ملحين في النصح أن يحسنوا العلم بالكلام قبل ان يتكلموا وبالكتابة قبل ان يكتبوا وبالأدب قبل ان يخوضوا فيه .

لم نفرغ بعد ويظهر أننا لن نفرغ في وقت قريب من مشكلة العامية الواقعية هذه الجديدة حتى أثيرت لنا مشكلة جديدة خليقة حقاً بأن نفكر فيها ونطيل الوقوف عندها ونقول فيها كلمة الحق . وهي مشكلة الشعر المنثور او النثر – المشعور – كما يقول شاعرنا الكبير عزيز أباظه .

ففي الشباب العربي نزعة الى التحرر من قيود الشعر العربي الموروث هم لا يريدون ان يقيدوا شعرهم بالقافية يمضي بعضهم في ذلك الى أبعد الحدود فيلغي القافية الغاء ويقتصد بعضهم فيحتفظ بشيء من تقفية ولكن في حدود اليسر والاسماح . وهم يريدون ان يتحرروا من قيود الوزن التقليدي الذي تركه لنا العرب القدماء ، ويذهبون في هذا التحرر مذهبهم في شأن القافية يغلو بعضهم فيرسل الكلام ارسالاً يطلقه من كل قيد لفظي ويقتصد بعضهم الآخر فيقيد كلامه في اوزان خاصة يراها ملائمة لما يضطرب في نفسه من العواطف والأهواء والميول . وهذا كله لا يرضي

شاعرنا الكبير عزيز أباظه فيما نشرت عنه الجمهورية منذ يومين وفيما كتب هو حين قدم لبعض الدواوين .

والأستاذ عزيز أباظه حريص على أن يكون محافظاً في الشعر معتزاً بهذه المحافظة يرى الخروج عليهـــا انحلالاً وإفساداً للفن ويسأل الخارجين على هذه المحافظة ما بالهم لا يتحررون من قواعد النحو كما تحرروا من قواعد الوزن والقافية . ولشاعرنا الكبير حقه الكامل في ان يكون محافظاً وفي ان يلزم طريقة شوقي والذين قلدهم شوقي من القدماء لا ينبغي لأحد أن ينازعه في شيء من ذلك .

ولكن لغيره فيما اظن الحق الكامل كذلك في ان يذهبوا في الشعر المذاهب التي تلائم طبائعهم وأمزجتهم والصور الجديدة التي صورت فيها نفوسهم ، لا غرابة في ذلك ولا خطر فيه فليس الشعر تقليداً وليس الشعر توقيعاً وانما الشعر صدى للقلوب والنفوس والطبائع جميعاً يصدر عنها كما هي لا كما نحب لها أن تكون . وليس على أحد حرج من التجديد في الشعر أوزانه وقوافيه وقد جدد القدمـــاء من العرب في شعرهم فابتكروا في الاسلام اوزاناً لم تكن في العصر الجاهلي وابتكروا في العصور المتأخرة أوزاناً لم تكن في الشعر الاسلامي الأول وصنعوا بالقافية مثل ما صنعوا بالوزن .

عرفوا ألواناً من الموسيقى لم يعرفها قدمـــاء العرب وعرفوا فنوناً من الغناء ، لم يعرفها قدماء العرب ايضاً ،

فلاءموا بين شعرهم وبين ما عرفوا من ألوان الموسيقى والغناء . وأتيحت لهم حضارة جديدة أثارت في نفوسهم عواطف وأهواء جديدة بل غيرت طبـائعهم وأمزجتهم تغييراً فلاءموا بين هذا كله وبين ما انشأوا من الشعر . لم يكن عليهم في ذلك حرج ولا جناح وانما كان ذلك ملائماً لطبيعة الاشياء . فتقصير الأوزان الطوال وابتكار اوزان جديدة والمزاوجة بين القوافي ، والمخالفة بينهـا احياناً ، كل هذه أمور عرفها القدماء ولم ينكرها عليهم احد الا ان يكون بعض المسرفين على انفسهم وعلى الناس. وفي بعض العصور الاسلامية تنافس الشعراء والكتّاب وعدا بعضهم على فنون بعض فنظم الشعراء نثر الكتـاب ونثر الكتاب نظم الشعراء . وهجم بعض الكتّاب على فنون من القول كانت مقصورة على الشعر في الزمـان الاول فتفوقوا فيها على الشعراء احياناً كما فعل الجاحظ حين عدا على فن الهجاء فبلغ فيه بكتاب التربيع والتدوير ما لم يبلغه شاعر من الشعراء الذين سبقوه او عاصروه ، وذهب بعض الشعراء بشعرهم مذهب الكتاب في التفصيل والتحليل والتحليل والتطويل كما صنع ابن الرومي في بعض شعره وفي فن العتاب خاصة .

جدد الشعراء في اوزان الشعر وقوافيه كما جددوا في صوره ومعانيه ملائمين بذلك بين شعرهم وحضارتهم . وما كان لهم من امزجة جديدة ومن طبيعة جديدة ايضاً

وضاق بذلك بعض المحافظين فلم يصنعوا شيئاً ولم يصدوهم عن التجديد ، وقد لعب شعراء المغرب العربي بأوزان الشعر وقوافيه ما شاء لهم اللعب ، فاستحسن الناس وما زالوا يستحبون لعبهم ذاك . وما اظن شاعرنا الكبير عزيز أباظه ينكر الموشحات او يأبى عليها ان دعته اليها طبيعته في بعض الظروف . ذلك ان الشعر كما قلت صدى لعواطف القلب واهواء النفس او هو صوت العقول كما كان ابو تمام يقول . والأصل في الفن حرية خالصة من جهـــة وقيود ثقال من جهة اخرى .

حرية في التعبير وطرائقه وما يبتكر فيـــه من الصور والمعاني وقيود يفرضها صاحب الفن على نفسه في مذاهب الأداء يلتزمها هو ولا يلزمه اياها أحد غيره وقد عرفت الانسانية شعراً رائعاً خالداً ولم يعرف القـافية لأنها لم تلائم طبعه ولا لغته ولا بيئته .

لم يعرف الشعر اليوناني القديم قافية ولم يعرف الشعر اللاتيني قافية وأتيح لكليهما رغم ذلك من الروعة والخلود ما لا يرقى اليه الشاك ، وتحلل بعض الشعراء الاوربيين من الاوزان والقوافي التقليدية فلم يُزر ذلك بشعر المجيدين منهم .

فليس على شبابنا من الشعراء بأس فـــيما ارى من ان يتحرروا من قيود الـوزن والقافيـة اذا نافرت امزجتهم وطبائعهم ، لا يطلب اليهم في هذه الحرية الا ان يكونوا

صادقين غير متكلفين وصادرين عن انفسهم غير مقلدين لهذا الشاعر الأجنبي او ذاك ومبدعين فيما ينشئون غير مسفين الى سخف القول وما لا غناء فيه .

فاذا اتيحت لأحدهم او لكثير منهم هذه الحرية الخصبة المنتجة المبدعة كنا أحب الناس لشعره ، واكلفهم به لأننا سنجد فيه رياً من ظمأ وشفاء لهذه الغلة التى تحرق نفوسنا تحريقاً فما اشد ظمأنا الى نفحات جديدة في الشعر .وما احر تشوقنا الى لون جديد من هذا الفن الأدبي الرفيع يرضي حاجتنا الى تصوير جديد للجمال .

# الكلمة الضائعة

انها كلمة شاعت وذاعت وضاعت في الوقت نفسه بين الذين يكتبون ويقرأون والذين لا يكتبون ولا يقرأون ، وبين الذين يعلمون ويفهمون والذين لا يعلمون ولا يفهمون . ينطلق بها كل لسان ويجري بها كل قلم ويخوض فيها كل متحدث . وهي مع ذلك لا تدل على شيء لاننا نريد ان ندل بها على كل شيء . ألم تعرف هذه الكلمة بعد ؟ انها كلمة الفن . هـــذه التي تفيض بأحاديثها الصحف والمجلات ، وتضطرب بها ألسنة المتحدثين في الجماعات الكبيرة والكثيرة ويخلو اليها كثير من الناس بين حين وحين فيضطربون في خلوتهم اليها بين الأمل واليأس وبين الرضا والسخط وبين السرور والحزن .

يخلو اليها المصور حين ينفق الجهد الثقيل ويحتمل العناء الثقيل ليعرب عن ذات نفسه في الصورة الرائعة ويخلو اليها

صاحب هذه الأداة التي تلتقط الصور الشمسية حين ينقل على الورق صور الأحداث التي تحدث والجماعات التي تأتلف والأفراد الذين يعملون ، دون ان يكلف نفسه جهداً ذا بال الا ان يكون ما ينبغي من الحركات المستأنية لتلتقط أداته في عجل وسرع ما يريدها على ان تلتقطه من صور الأشياء والأحياء .

كلا الرجلين يسمي عمله فناً ويسميه الناس كذلك فناً وقل مثل ذلك في الصحفي الذي يلتقط الاخبار من هنـــا وهناك ليملأ بها مكاناً من صحيفته وليطرف قراءه حين يصبحون وحين يمسون ، وقل مثل ذلك ايضاً في الصحفي الذي يفرغ لنقل الأنباء من رسائل البرق الى اللغة العربية أداء لواجبه الصحفي واظهاراً لقرائه على ما يقع من الأحداث وما يرسل من الاقوال في اقطار الارض،وفي الكاتب الذي يفرغ لمعنى من المعاني فيطيل به التفكير ويمعن فيه التروية ويتعمقه حتى يصل الى خلاصته ويصفيه وينقيه وينفي عنه الشوائب ثم يجد ويكد ويشقى ليؤديه الى القارىء في صورة شائقة رائعة تبلغ اعماق نفسه وتثيره الى الخير فيحبه ويسعى اليه او تنفره من الشر فيبغضه ويبرىء نفسه منه ويحبب الى الناس ما احب ويكره اليهم ما كره وينشر فيهم الدعوة الى الاصلاح ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لأن الكاتب احسن التعبير عما اراد وأحسن التصوير كما اراد ولأنه هو قد أحسن القراءة والفهم والانتفاع . وقل مثل ذلك في

الشاعر الذي ينفق بياض يومه وسواد ليله او بياض ايامه وسواد لياليه حتى يخرج قطعة من الشعر رائعة بارعة يقرأها القارىء او يسمعها السامع فتشيع الموسيقى في نفسه ويشيع الجمال في قلبه وتأخذه البهجة والسرور في جميع اقطاره وفي الناظم الذي يجمع الكلمات من هنا وهناك ويلائم بينها حتى يؤلف منها كلاماً له وزن وقافية. وقل مثل ذلك في الرجل الذي يفرغ لخاطر من خواطره او لصورة من صور الحياة او صور الطبيعة فيملأ بها قلبه وعقله وذوقه ثم يجد ويكد ويشقى كثيراً ويسعد قليلاً ليعرب عن ذات نفسه في هذا اللون او ذاك بل في هذه الألوان او تلك من ألوان النغم حتى اذا اتيح له التوفيق اخرج لحناً موسيقياً يملك عليك امرك كله ويملأ عليك قلبك كله وينسيك نفسك وينسيك ما حولك ومن حولك ويخرجك من هذا العالم المادي والمعنوي الذي يعيش فيه مكدوداً مجهوداً ويرفعك الى عالم آخر كله راحة وروح ونعيم ، فيجدد نشاطك ويخلقك خلقاً جديداً ويهيئك لاستقبال حياتك التي تحياها قوياً جلداً قادراً على احتمال اثقالها والنفوذ من مشكلاتها ، وفي هذا الرجل الآخر الذي يعبث بالأصوات والأنغام في غير جهد ومشقة ليؤلف لك في آخر الأمر لحناً من هذه الألحان التي تثير غرائزك وتغريك باللذائذ تسلط عليك هذا الفتور الذي يستأثر بالنفس حين تتحكم فيه غريزة من الغرائز وتسيطر عليها شهوة من الشهوات فتفقد عزمها وحزمها وتفقد جدها وحدها ويصيبها

شيء يشبه التخدير الذي يصيب المريض حين يسلط عليه هذا المخدر او ذاك ليفقد حسه بالألم وشعوره بما سيتعرض له من عبث الجراح بهذا الجزء او ذاك من اجزاء جسمه .

كل هؤلاء يسمون اعمالهم فناً ويسميها الناس فناً كذلك .

وتستطيع ان تمد هذه الكلمة الى ما شئت من المعاني وما احببت من الأعمال فستجدها رضية طيعة تمتد الى غير غاية ما دمت قادراً على ان تمدها . فآثار شكسبير وراسين وموليير ومن شئت من اعلام شعراء التمثيل وكتابه فن ، وتهريج المهرجين في الملاعب وفي الاذاعة لتسلية النظـارة والمستمعين وتلهيتهم فن ، وكل ما يعرض في السينما سواء أكان جيداً ام رديئاً قيماً او سخيفاً نافعاً ام ضاراً كل ذلك فن ، وليس من شك في ان كل لعب له حظ من نظام فن ايضاً مهما تكن قيمته ومهما تكن نتائجه . وقد كانت في مصر مجلات خصصت للفن وأهل الفن . وأحسب بعضها لا يزال قائماً وحديثها كله او جله مقصور على ما نسميه في مصر سينما او تمثيلاً مع اننا نعلم حق العلم ان ليس في مصر سينما ولا تمثيل ، وقد تتحدث هـذه المجلات والصحف عن الموسيقى والموسيقيين ، عن الموسيقى المصرية بالطبع والموسيقيين المصريين بالطبع ايضاً . مع اننا نعلم حق العلم ان الموسيقى غريبة في مصر تزورنا لماماً ولا يعرفها من المصريين الا افراد نعرفهم ونستطيع ان نسميهم وان نحصيهم في غير مشقة ولا عناء لأنهم اقل جداً من

القليل. وقدتتحدث هذه المجلات والصحف عن الغناء المصري والمغنيين المصريين .. مع اننا نعلم حق العلم ان الغناء في مصر غريب يلم بها بين حين وحين اثناء الشتاء ، ثم ينصرف عنها قبل ان يقبل الربيع .

كل هذا عندنا فن لأن كلمة الفن قد فقدت في مصر معناها وقيمتها وأصبحت كلمة من هذه الكلمات التي لا تكاد تشيع حتى تضيع .

ولذلك لم أعجب ولم يأخذني من الدهش قليل ولا كثير حين رأيت صديقنا الاستاذ سامي داود حائراً في مقاله يوم الخميس الماضي لا يدري أيطلب الى مجلس الفنون والآداب ان يوجد في مصر فن الموسيقى بمعناه الصحيح الدقيق ، وفناً آخر يحبه المصريون كل الحب ويخافون منه كل الخوف تشتهيه قلوبهم وتخافه ألسنتهم فيعبرون عنه بكلمة أجنبية تؤدي بعض معناه ولا تؤدي معناه كله ، وهي كلمة الباليه .

وهم يريدون الرقص بمعناه الفني الدقيق الذي لا يثير بعض الغرائز ولا يهيج بعض الشهوات وانما يمتع لأنه لون من ألوان الفن الرفيع .

كان صديقنا حائراً مشفقاً لا يدري أيطلب الى مجلس الفنون والآداب ان يوطن الموسيقى والرقص بمعناهما الفني الرفيع ام لا يطلب لأنه بالطبع مشفق من ان يغضب قوماً لا يحب ان يغضبوا ويثير قوماً لا يحب ان يثوروا . وأنا اكتب الآن لأرد على الصديق بعض الطمأنينة وبعض الأمل

ايضاً . فمن حقه ومن الحق عليه ان يطلب الى مجلس الفنون والآداب تحقيق أمنيته هذه التي يتمناها مثله كثيرون ، ولكنهم يترددون كما تردد ويشفقون كما اشفق لانهم يكرهون ان يغضبوا قوماً ويثيروا آخرين ولانهم يعلمون ان الذوق الفني الصحيح الجدير بهذا الاسم لم يشع بعد بين المواطنين وليس من الممكن ان يشيع قبل ان تشيع الثقافة ويعم التعليم ويعرف المصريون حقائق الحيـــاة الحديثة التي يريدون ان يحيوها والتي لا مفر لهم من ان يحيوها الا ان يؤثروا الموت على الحياة والخمول على نباهة الشأن وارتفاع المنزلة .

فالشعوب لا تعيش في هذه الأيام بالتهريج ولا ترقى باللعب ولا تنهض بأعباء الحياة وهي نائمة كاليقظة ويقظة كالنائمة ، والحضارة التي تلائم الحياة الحديثة شيء كامل لا يمكن ان يؤخذ بعضه ويترك بعضه الآخر ، وانما يؤخذ كله او يترك كله . فالذين يأخذونه كله هم الذين يحيون ويرقون ويفرضون انفسهم على الزمان وعلى غيرهم من الناس . والذين يتركونه كله او يأخذون بعضه ويتركون بعضه الآخر هم الذين يموتـــون او يخملون ويتعرضون للاستذلال والاستغلال ويطمعون الناس في انفسهم ووطنهم ومرافقهم كلها .

وفي الحضارة الحديثة كثير من النقائص وكثير من الآثام ولكن الشعوب الجديرة بهذا الاسم تجد في اصلاح هذه النقائص وهذه الآثام تنقية الحياة الانسانية من كل

شائبة تنقص من قدرها فاذا دعونا الى الاخذ بأسباب الحضارة الحديثة كاملة فنحن لا ندعو الى الأخذ بما فيها من النقائص والآثام ، لم نسمع قط ان الفن الجميل نقص او اثم وانما سمعنا دائماً وعرفنا دائماً ان الفن الجميل كمال ونقاء فيه تزكية القلوب وترقية العقول وتصفية الاذواق ، والذي اعلمه من مجلس الفنون والآداب انه انما انشيء للاصلاح ولاصلاح الفنون والآداب خاصة . وسبيل هذا الاصلاح انما هو ان يعرف الناس حقائق الفن الجميل وحقائق الأدب الرفيع معرفة لا تقتصر على طائفة خاصة من الناس ، بل تعم الشعب كله ليتقارب ابناؤه الى الفهم والذوق والشعور ولا يمتاز الممتازون منهم الا بالجد والكد في سبيل الخدمة العامة وفي سبيل اسعاد الناس والجهل لا يسعد احداً وجفاء الطبع وغلظ الذوق لا يسعدان احداً وليست سعادة الناس في ان يجدوا في يسر ما يحتاجون اليه من الغذاء والكساء وصحة الاجسام كما كان يقال في ايام المرض ، وانما هي في ان يجدوا هذه الاشياء في يسر ويجدوا معها صحة النفوس وذكاء القلوب ونقاء الضمائر وصفاء الأذواق وسماحة الأخلاق .

والفنون الجميلة بمعناها الدقيق هي السبيل الوحيدة الى هذه السعادة يجب ان تسمو نفس الشعب لتسمو آماله وأعماله ومقاصده وغاياته ، والفن الجميل على اختلاف انواعه هو السلم الذي يتيح للشعب ان يرقى ويسمو ويعنى بعظائم

الامور وجلائل الاعمال .

وجهد المجلس في اصلاح الفنون والآداب هو الذي يجب ان يميز الخبيث من الطيب ويفرق بين صحيح الفن وزائفه او قل ان شئت بين الفن الجميل والتهريج .

فليطمئن الكاتب الأديب وأمثاله الذين يجدون مثل ما يجد ويشفقون من مثل ما يشفق منه ، فأنا ارجو وأعرف ان الزملاء من اعضاء المجلس يرجون مثلي ان يأتي على مصر يوم قريب او بعيد تعرف فيه للفن الجميل حقه وقدره وتؤثره على كل شيء وتنفي عن نفسها وعن غيرها من الشعوب العربية ما تشقى به الآن من صنوف العبث والسخف والتهريج التي تسمي نفسها فناً وليست من الفن في شيء :

منى ان تكن حقاً تكن احسن المنى
والا فقـــد عشنا بها زمناً رغدا

# ليست ثورة وإنما هي دعاء

لم أحدث ثورة في الكتابة العربية الا أن يكون الرجوع الا القديم الذي عرفه الناس وقالو به منذ قرون طوال ثورة ... والذي أعلمه أن الثورة تجديد وما دمت لم أجدد شيئاً فــلم احدث ثورة . ومنذ قرون طوال قالت طائفة ضخمة من علماء العربية بأن الكتابة يجب أن تلائم النطق، وكتب هاؤلاء العلماء علا النحو الذي رآه القراء منذ أيام.

وأنا بعد ذلك لست الداعي الا هاذا النحو الذي عرفه القدماء وانما دعا اليه في المجمع اللغوي صديق كريم هو الزميل ابراهيم مصطفا .

وكنت مؤيداً له وخالفنا اكثر الأعضاء لا انكاراً لما نرا بل ايثاراً للاناة وتقديم المهم علا ما يمكن الانتظار به .

وكان أعضاء المجمع يرون أنهم قد قدمو الا وزارة التربية والتعليم منذ سنين طوال تيسيراً للنحو وللنحو التعليمي الذي

يلقا الا التلاميذ في المدارس ليخرجو هاؤلاء التلاميذ من هاذا العنـــاء العظيم المقيم الذي يشقون به في دروس اللغة العربية ويبغضون من اجله هذه الدروس . ويتعلمون ما يلقا اليهم منها كارهين ليخلصو منه متا فرغو من الامتحان ثم يصبحون وكأنهم لم يتعلمو شيئاً .

فآثر هاؤلاء الاعضاء أن يستأنسو بوزارة التربية والتعليم حتا اذا اساغت تيسير النحو قدمو اليها تيسير الاملاء .

وكان المجمع وما زال معنياً باصلاح الكتابة العربية لا يكفيه أن يكتب الالف المقصورة كما ينطق بها وانما يعنيه أن يكتب الكلام العربي كله كما ينطق به المتكلمون . والناس جميعاً يعلمون أننا لا نكتب كل ما ننطق به وانما نكتب نصفه ونترك نصفه الآخر يذهب مع ريح الصيف أو ريح الشتاء .

فكتابتنا أدنا الى أن تكون اختزالاً منها الا ان تكون تسجيلاً لصورة الأصوات حين يؤديها بعضنا الا بعض . فأنت حين تنطق بالفعل الماضي «كتب» لا تنطق بكاف وتاء وباء فحسب ولو أردت أن تنطق بهاذه الأحرف الثلاثة وحدها لما وجدت الا النطق بها سبيلاً وانما أنت تنطق معها بشيء آخر هو الذي يتيح لك النطق بها . وهذا الشيء الآخر هو هاذه الفتحات التي تلي كل حرف من هاذه الاحرف.. فأنت اذن تنطق بالكلمة كاملة ، فاذا كتبتها ألغيت نصفها وهو النصف اللين منها . وأبقيت منها نصفها الجامد وكافت

قارئك عناء ثقيلاً وهماً طويلاً . وذالك أنه لا يدري أينطق هاذه الاحرف مفتوحة او يضم الحرفين الاولين منها ، ويخلي ثالثها لحركة الاعراب ، او يفتح الاول ويكسر الثاني ويفتح الثالث او يفتح الاول ويسكن الثاني ويترك الثالث لحركة الاعراب .

وقل مثل هاذا فيما شاء الله من الكلمات ومعنا ذلك ان على القارىء ان يفهم قبل ان يقرأ لتصح قراءته وتستقيم. ومعنا ذلك ايضاً اننا نجعل الكتابة غاية ونجعل القراءة غاية ايضاً ونجعل الفهم وسيلة اليها . وهذا هو قلب الاوضاع فالاصل اننا نكتب ليقرأ الناس وان الناس يقرأون ليفهمو ونحن نريدهم على ان يفهمو ليقرأو واغرب من ذالك ان هاذا الداء القديم قد وجد منذ كانت الكتابة العربية وتنبه القدماء له بالقياس الا القرآن الكريم فاستحدثو النقط على الحروف ولم يكن موجوداً واستحدثو الشكل كذلك لتستقيم قراءة القرآن الكريم بغير لحن ، وخلو بين الناس وبين هاذا الداء العضال يفتك بعقولهم وافهامهم والسنتهم ما وجد الا الفتك بها سبيلاً ؛ وكثر التصحيف والتحريف في الكتابة والقراءة منذ اقدم العصور . واشد غرابة من هاذا كله ان الناس قبلو هاذا الداء العضال واحتملو اثقاله على مر القرون لان الذين كانو يكتبون ويقرأون منهم ظلو قلة قليلة بالقياس الا الذين لم يكونو يكتبون ولا يقرأون .

فأما نحن فقد اخذنا بالنظم الحديثة وفرضنا الكتابة والقراءة

على الشعب كله واخذنا نلزم الآباء ارسال ابنائهم وبناتهم الى المدارس منذ يتمون السادسة من اعمارهم . واخذنا نكافح الامية عند الذين تجاوزو سن التعليم . فنحن نريد النــاس جميعاً علا ان يكتبو اولاً ويقرأو ثانياً دون ان نيسر لهم الكتابة والقراءة وان نجعلها وسيلة لا غاية .

ومعنــا هاذا اننا نكلفهم ما لم يكلفهم الله عز وجل، نكلفهم ان يفهمو اولاً وان يكتبو بعد ذالك ويقرأو او قل اننا نكلفهم ان يكتبو دون فهم وان يفهمو بعد ذلك ان ارادو ان يقرأو او قل اننا نفسد عقولهم بالتعليم مع اننا نعلمهم لنصلح عقولهم واننــا نفسد طبائعهم كلها بالتعليم ، مع اننا نعلمهم لنصلح طبائعهم كلها ونهذبها . فنحن نقلب الاوضاع في نفوسهم ونعطيهم من طبيعة الاشياء منذ اول الصبا صورة مشوهة ممسوخة ونطالبهم بما لا يطالب به صبي ولا شاب ولا شيخ، نطالبهم بأن يفهمو الكتاب ليقرأوه .

شر من هذا كله اني لا اقول جديداً في هذا الحديث ، فالناس جميعاً يعرفون كل ما قلت ويعرفون منذ زمن طويل اكثر مما قلت ولا يصنعون شيئاً ليخلصو من هاذا الداء وليلائمو بين التعليم الذي جعلناه شعبياً وبين طبيعة الاشياء .

هم يريدون التعليم الشعبي لان الامم المتحضرة تفعل ذلك ، ولانهم لا يبتغون الوسائل الصحيحة الى هاذا التعليم

كسلاً او قصوراً او تقصيراً او لهاذه الخصال كلها ولخصلة اخرى ادها منها وامر وهي الخوف .

الخوف من هاذا ! او الخوف ممن ! الخوف من المحافظة والمحافظين من الذين ظنو ان الكتابة مقدسة وحسبو انها قد انزلت من السماء . فلا يجوز ان تمس باصلاح او تغيير ، ونسو او جهلو ان قدماء المسلمين قد غيروها واصلحوها ليقرأ بها القرآن الكريم قراءة صحيحة .

ولو قد عرف القدماء من المسلمين ان الكتابة والقراءة يجب ان تفرضا على النـــاس جميعاً كما نعرف ذالك نحن الآن ليسروهما علا الناس جميعاً لانهم فيما يظهر كانو اعرف منا بالحق واهدا منا الا سواء السبيل .

وقد نشأ عن هاذا الكسل او هاذا القصور والتقصير او عن هاذا الاشفاق والخوف او عن هاذه الخصال كلها ان شئت ان شبابنا جهلو لغتهم ، ثم ضاقو بها ثم انكروها وخرجو عليها ثم اخذو يعرضون عنها ويكتبون بالعامية ويدعون إلا الكتابة بها ويلحون في هاذا الدعاء الحاحاً شديداً ويتندرون بالذين يحبون لغة القرآن ويعبثون بالذين يتفاصحون. واخذنا نحن نلومهم اعنف اللوم ونقسو عليهم في النقد والازراء . والحق علينا ان نلوم انفسنا اولاً وان نذري عليها .

فلو قد يسرنا لهم الكتابة والقراءة لكتبو فأحسنو وقرأو فأصلحو واتاحو للغتهم ان تتطور في مهل وريث تطوراً

لا يفسدها ولا يعرضها لهاذا الخطر العظيم وما اكثر الذين يتعلمون وينفقون اعمارهم في اتقان العلم باللغة فاذا ارادو ان يقرأوها او يتكلمو بها تورطو فيما ليس لهم بد من ان يتورطو فيه من اللحن الفاحش والخطأ المنكر الفظيع. وليس لهاذا مصدر إلا انهم تعلمو اول ما تعلمو على هذه الاوضاع المقلوبة التي لا تلائم عقلاً ولا طبعاً ولا ذوقاً ولا تؤدي إلا غاية.

واذن فكتابة الالف المقصورة الفاً دائماً ليست الا قطرة من بحر ولم اقصد بها ولم يقصد بها الاستاذ الزميل ابراهيم مصطفا إلا شيئاً واحداً هو ان يشعر الناس جميعاً وان يشعر القائمون على التعليم خاصة بأن لغتهم مريضة وبأن الجهود الضخمة والاموال الكثير التي ينفقونها في التعليم مضيعة لا تغني عنهم ولا عن المعلمين ولا عن ملايين المتعلمين شيئاً مـــا دامت الكتابة علا هذا النحو.

واقول هذا وأنا اعني ما قوله واعممه ولا اقف به عند فهم الادب وذوقه بل اتجاوز ذالك الى فهم العـــالم نفسه والانتفاع به فالذين يقرأون كتب العلم باللغة العربية وحدها لا يفهمونها إلا قليلاً وهم جديرون بألا ينتفعو بما يقرأون. ولولا ان علماءنا يقرأون العلم في اللغات الاجنبية لما تخرج فينا مهندس ولا طبيب ولا عالم ذو خطر، نحن بين الاثنين اما ان نجد ونأخذ الحيـــاة علا انها جد فنيسر تعليم اللغة العربية كتابة وقراءة ونحوا لينتفع الناس بما يتعلمون وليصبحو

قادرين على ان يؤصلو الحضارة ويوطنوها في بلادهم واما ان نمضي فيما نحن فيه من العبث وقلب الاوضاع والمخالفة عن قوانين الطبيعة ، فنضيع اللغة العربية ضياعاً لا مرد له ولا مخرج منه ونظل عيالاً علا الاجنبي دائماً حين نحاول درس العلم والتصرف فيه او الانتفاع بنتائجه ؛ وننظر إلا الحضارة المعاصرة على انها شيء غريب طارىء علينا وعلا انها شر لا بد منه نأخذه مقلدين لاننا لا نريد ان نفنا ولا ان نضيع .

ارايت الا ان قصة الالف المقصورة لم تكن في نفسها غاية وانما كانت وسيلة إلا شيء اعظم منها خطراً وابعد اثراً في بقاء اللغة العربية من جهة وفي اصلاح الحياة العقلية كلها من جهة اخرا .

فلينظر القائمون علا امور التعليم والقائمون علا شؤون الثقافة فقد آن لهم ان يتدبرو امرهم وان يسألوا انفسهم أيريدون التعليم في غير فائدة ولا جدوا ام يريدون ان يأخذو الحياة علا انها جد واذن فأول ما يجب عليهم هو ان يصلحو الكتابة والنحو لينتفع الصبية والشباب بما يتعلمون .

# الكابتان ميخالي

كانت هذه القصة أروع ما قرأت اثناء الصيف ، بل أروع ما قرأت أثناء العام كله على كثرة ما قرأت فيه . ومع أنها طويلة توشك ان تبلغ من الصفحات خمسمائة قد طبعت في حروف دقيقة فلم آس على شيء كما أسيت على الفراغ من قراءتها وما أرى الا اني سأقرأها ان شاء الله مرة ومرة .

ومع اني في هذه الاسابيع كنت كغيري من المصريين مشغول البال بما يجري من الأحداث السياسية التي اضطرب لها الشرق والغرب جميعاً ، فقد كنت أجد في قراءتها روحاً وراحة ولم أكن أحس ان قراءتها تخرجني مما يشغل بالي من الأحداث ، فهي تتحدث منذ الكلمة الأولى الى الكلمة الأخيرة منها عن الحرية والموت ، وأي شيء يشغلنا في هذه الايام الا هذا الاختيار اليسير على النفوس

الكريمة العسير على النفوس الهينة الذليلة الا هذا الاختيار بين الحرية والموت .

ولم اكد أمضي في قراءتها شيئاً حتى خيل الي اني اقرأ الالياذة ولكنها الالياذة الحديثة التي لم تنظم شعراً وانما كتبت نثراً والتي لا تقع أحداثها في القرن العاشر قبل المسيح وانما تقع في القرن التاسع عشر وفي اواخر القرن التاسع عشر بعد المسيح والتي لا تصور احداثاً وقعت في آسيا الصغرى حول هذه المدينة التي حفظ التاريخ اسمها الى آخر الدهر وانما تقع احداثها في جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط هي جزيرة اقريطش كما كان العرب يسمونها او جزيرة كريت كما يسميها الناس الآن . فالشبه قوي أشد القوة بين هذه القصة المعاصرة التي كتبها كاتب يوناني حديث وبين تلك القصيدة القديمة التي لم يتفق العلماء على منشئها بعد وان اتفقوا على انها تنسب الى شاعر يسمى هوميروس .

والكاتب الحديث لا يستوحي ربة الشعر في اول قصته كما فعل الشاعر القديم وانما يأخذ في حديثه مباشرة يتحدث الى الناس من وحي نفسه ومن وحي وطنه لا من وحي هذه الالاهة او تلك من الآلهة القدماء ولكنه بعد ذلك يمضي في قصته كما مضى الشاعر القديم في قصيدته مصوراً أبرع تصوير وأروعه واشد استثاراً بالقلوب والعقول ثورة اليونان في جزيرة كريت بالترك الذين كانوا يتسلطون عليها

وغضب اليونان لحريتهم الانسانية وكرامتهم الوطنية وحرص اليونان علي ان يظفروا من العزة بمثل ما ظفر به مواطنوهم في الارض اليونانية الاوربيــة وضيق الترك بهذه الثورة ومقاومتهم لها وبطشهم بالثائرين بين حــين وحين بطشاً لا يقوم به الجند وحدهم وانما يقوم بـه المدنيون الذين استعمروا هذه الجزيرة من الترك وامعان اليونان في الغضب والثورة كلما أمعن الترك في المقاومة والبطش وفي هذا الصراع الهائل العنيف الذي لا تخبو ناره الا لتشب ولا تهدأ حدته الا لتزداد هولاً وعنفاً . في هذا الصراع يظهر الابطال الذين يشبهون اشد الشبه واقواه ابطال الاليـاذة في حدة القلوب وشدة الذكاء ومضاء العزيمة وسعة الحيلة ودقــة المكر والمهارة في الكيد والميل مع هذا كله الى الاستمتاع بطيبات الحياة في غير قصد ولا اعتدال ، اجل وفي هذا الصراع ايضاً تظهر القوى الخفية التي تمد اليونان بالبأس والأيد وتيسر لهم الأمور حين يشتد عسرها وتفرج عنهم الكروب حين يشتد ضيقها .

فهؤلاء القديسون الذين تقوم تماثيلهم في الكنائس وتستقر صورهم في الدور يعملون في هذه القصة عمل الآلهة القدماء في قصيدة هوميروس ، هذا قديس قد استقر تمثاله في الكنيسة لا يشك اليونان في انه يخرج بين حين وحين من كنيسته وقد امتطى فرسه فيملأ قلوب الترك رعباً وفرقاً والترك انفسهم يصدقون ذلك ويشفقون منه من حين الى

حين . وكما انك تجد في الالياذة بعض الصعاليك البائسين الذين يعيشون حول ملوك اليونـــان ناقين عليهم ساخرين منهم مستمتعين مع ذلك بما عندهم من السعـــة واللين . فأنت واجد في هذه القصة شعارهم ذاك ، وهم يصلون نار العدو : الحرية او الموت .

بعض هؤلاء الفقراء البائسين الذين يعيشون حول اغنياء اليونان والترك يستمتعون في ظلهم بما يساقـــط عليهم من طيبات الحياة ويطلقون فيهم السنتهم مع ذلك بغير ما يحبون. ثم لا يمنعهم هذا حين يجدّ الجد من ان يبلوا في الحرب أحسن البلاء ويتعرضوا للهول ويصيحوا . والقصة بعد ذلك حديثة كلها لأنها تصور احداثاً وقعت في القرن الماضي كما قلت آنفاً . فالتفكير فيها حديث والتعبير فيها حديث وأدوات الحرب حديثة ايضاً ولكنها على ذلك تصور عقولاً يونانية وتركية لا تفكر كما يفكر غيرها من العقول الاوربية وانما تفكر على نحو خاص أقرب الى تفكـــير العصور الوسطى ، فيه كثير من الجهل وفيه كثير من الثقة وفيه كثير من الايمان بهذه القوة الغريبة التي تسيطر على الطبيعة وتسخرها وتخالف بها عن قوانينها المألوفـــة . فتحدث المعجزات احياناً وترد الشر الذي لا مرد له احياناً اخرى. وفي القصة بعد هذا كله ابطال لا يمتازون بالشجاعة والبأس وحدهما ولا يمتازون باحتمال المكروه والصبر على ما لا يطاق الصبر عليه والنفوذ الى الموت في غير تردد ولا تحفظ

ولا احتياط ولكنهم يمتازون على ذلك بأشيــاء اخرى . ففيهم المعرض عن طيبات الحياة اشد الاعراض واقواه المؤثر للصمت الذي لا يكاد يتكلم الا حين لا يكون من الكلام بد ، المؤثر للعبوس الذي لا يبسم للصديق ولا يبسم للزوج ولا للابناء حين يخلو اليهم ولكنه على ذلك يخلو الى لهوه مرتين في كل عام فيجمع اليه نفراً من الصديق ويخلص لهم ويخلصون له في نفق من انفاق داره اسبوعاً كاملاً لا يلقون فيه احداً ، قد عكفوا فيه على لهوهم ، فهم يشربون ويأكلون ويسمعون للموسيقى وصاحبهم ذاك جالس منهم مجلس الملك الغضوب العنيف قد قطب جبينه وغشى وجهه العبوس . فهو يشرب كما يشرب اصحابـه ويأكل كما يأكلون ويسمع للموسيقى كما يسمعون لها .

لكنه عابس دائماً مقطب دائماً قد علــق سوطه الى جانبه ينشط به اصحابه ان أدركهم الفتور حتى اذا انقضى الاسبوع صرف اصحابه ومضى يضطرب في اعمال الحياة كأنه لم يفرغ للهو ولم يعكف عليه .

وفهم البطل العابث دائماً المداعب للصديق دائماً الذي لا يغضب الا حين يجد الجد والذي لا يكره ان يأخذ من الحياة كلها ما تقدم له من اللذات غير حافل بما كــان أمس ولا بما سيكون غداً من جلائل الأعمــال وعظائم الأمور لا يحرص على الحياة ولا يرهب الموت ولا يحفل الا بشيء واحد هو ان يحقق الحرية لجزيرته حين تتاح

له الفرصة لتحقيقها ومنهم هذا الذي آمن بالعدل واستيقن بأنه يجب ان يملأ الارض كلها بعد ان ملأها الجور كلها. وان جزيرته يجب ان تنال نصيبها من هذا العـــدل وان الترك هم اصل الجور وان الاقوياء من ملوك اوربا قادرون على ان يردوا الى جزيرته حقها من العدل ويعينوا اهلها على اجلاء الترك عنها كما اعانوا اليونان على اجلاء الترك عن الوطن اليوناني الاوربي . وهو من اجل ذلك قد لزم داره لا يكاد يبرحها وهو ينفق نهاره كله في كتابة الرسائل الى هؤلاء الملوك والى رؤساء الجمهوريات . يكتب مرة الى فيكتوريا ومرة اخرى الى القيصر الروسي ومرة ثالثة الى رئيس الجمهورية الفرنسية يكتب دائمـــاً وينتظر رد الملوك دائماً ويسأل كل صباح عما حمل البريد اليه . ولكن البريد لا يحمل اليه شيئاً ولا يفـل ذلك من عزمـه فهو كاتب دائماً منتظر دائماً ولا يمنعـــه ذلك من ان يموت – حين يجد الجد – موت الابطال .

ومنهم هذا الشيخ الذي انفق حياته مجاهداً يثور مع الثائرين ويقود فرقته ويخوض معهـا غمـرات الموت فاذا أخفقت الثورة وخبت نارها عاد الى قريته فلها واستمتع بالحياة واضاف مالاً الى مال وثراء الى ثراء وثمر ثروته ما وجد الى تثميرها سبيلاً .

واستكثر من الولد وحث ابناءه على ان يستكثروا منه لأن الجزيرة في حاجة الى ان يكثر فيها الشباب المجاهدون.

وهو يدفع الشباب من ابنائه الى الجهاد بعد ان اثقلته السن ويبتهج حين يعلم انهم قد احسنوا البلاء فيه ولا يأسى حين يعلم ان احدهم قد قتل في هذا الميدان او ذاك وانما يغتبط بذلك ويحتفل له فيطعم الناس ويسقيهم ويعطيهم السلاح ويرسلهم الى الميدان ليكسبوا الحرية للجزيرة او يموتوا كراماً . والناس يأكلون عنده ويشربون ويطربون ويأخذون سلاحه ويمضون به الى الميدان فمنهم من يموت كريماً ومنهم من يعود وقد احسن البلاء وانتظر فرصة أخرى ليكسب الحرية للجزيرة او يكسب لنفسه موتاً كريماً .

وكما ان الالياذة تصور اول ما تصور غضب أخيل البطل اليوناني القديم بل هي تدور كلها حول هذا الغضب فان هذه القصة تدور كلها حول بطل حديث غضب فكان غضبه محور القصة وقوامها ، به تبدأ وبه تنتهي . وهذا البطل هو الكابتان ميخالي الذي جعل الكاتب اسمه عنواناً لهذه القصة وان جعل لها المترجم الفرنسي عنواناً آخر هو الحرية او الموت .

والكابتان ميخالي هو هذا البطل الذي اشرت اليه آنفاً والذي هو مغضب دائماً عابث دائماً والذي لا يكاد يخرج من صمته الا حين تدعوه الضرورة الى ان يقول شيئاً فاذا قال اوجز في القول اشد الايجاز وهو على ذلك عريض في الفضاء طويل في السماء مهيب المنظر والمظهر يملأ

الارض من حوله خوفاً ولا يتحدث الناس اليه الا في تحفظ اي تحفظ تخافه زوجه فلا تكلمه الا ان يريدها على ذلك وتكبره ابنته وتود لو كانت فتى لتسير سيرته وتتخذه لها مثالاً وتخفي امرأته عليه صبيتها الصغيرة لأنه اعلن اليها انه لا يحب ان يرى البنات ولا ان يسمع صوتهن ويحذو ابنه الغلام حذوه فيقود اترابه في المدرسة ويغريهم بالكيد للمعلم ويسبقهم الى ذلك ويحمل عنهم تبعاته .

وكابتان ميخالي لا يثير الخوف في نفوس اليونان وحدهم بل يثيره في نفوس الترك ايضاً فهم يرهبونه ويتقونه ولا يعاملونه الا في تلطف له وتودد اليه وله خصم من الترك عنيف مثله قوي مثله مغامر مثله ايضاً وقد اختصما ذات يوم فاذا الكابتان ميخالي يأخذه من منطقته فيرفعه ويهزه في الهواء ويلقيه على سقف من السقوف والتركي منذ ذلك اليوم يكبره ويتجنب الاساءة اليه . وفي ذات يوم يرسل هذا التركي الى الكابتان ميخالي غلامه الأسود يدعوه لزيارته فيتردد الكابتان ميخالي طويلاً ثم يزوره لا خوفاً منه على نفسه بل خوفاً منه على اليونان . وهو قد سمع مواطنيه ذات يوم يتحدثون من حوله فيسأل بعضهم بعضاً عما يحب ان يملك أهو الفرس الأصيل الذي يركبه ذلك التركي ام هي الزوجة الشركسية الحسناء التي يحجبها ويحبها اشد الحب واقواه ويغار عليها اعنف الغيرة واعظمها فينهرهم ويحذرهم ان يخوضوا عنده في مثل هذا الحديث . فهو

لا يكره شيئاً كما يكره ان تذكر المرأة او الترك عنده، هو يزدري المرأة لأنها تغري باخلاد الى الدعة واللذة ويزدري الترك لأنهم عدوه وعدو اليونان منذ افتتحت قسطنطينية وقد اشتد عداؤه وعداء اليونان للترك منذ تحررت بلاد اليونان وظلت كريت خاضعة لسلطان الترك . وقد اقبل الكابتان ميخالي ذاك مساء على قصر نوري بك مستجيباً لدعوته . فتلقاه التركي احسن لقاء وتحدث اليه في رفق عن أخيه ذاك المقيم في قرية خارج اسوار المدينة والذي يؤذي الترك بالقول والعمل والذي اجترأ ذات يوم فحمل حماراً ومضى به الى المسجد ليقيم الصلاة . قال التركي وما اريد ان آخذه بائمه فيفسد الامر بيننا وبين اليونان وانما اتوسل بك اليه لتكف عنا يده ولسانه ، فنكف عنه أيدينا وألسنتنا .

وقد سمع له الكابتان ميخالي ثم سكت عنه وكاد الأمر يفسد بين الرجلين ، ثم بدا للتركي فقال لصاحبه ان المدينة لا تحتملنا جميعاً فلا بد لأحدنا من ان يقتل صاحبه او تصير الى الاخاء وانا اوثر ذلك فهلم نحدث بيننا اخاء يمحو ما تكن قلوبنا من العداء . ثم مد ذراعه الى الكابتان ميخالي فأحدث فيها جرحاً أسال دمه ومد الكابتان ميخالي ذراعه الى التركي ففعل بها مثل ذلك ومزج دمه ودم صاحبه في كأس شرب منها كلاهما جرعة فأصبحا أخوين لا تستطيع الاحداث ان تعدو على ما بينهما من المودة .

وابتهج التركي بذلك أشد الابتهاج فدعا بالخمر وشربا على اخائهما ثم لعبت الخمر بعقله شيئاً فألغى كل حجاب بينه وبين أخيه وصفق فأقبلت خادم له سوداء فأمرها ان تدعو زوجه امينة لتحضر ومعها قيثارتها وما هي الا أن تقبل الزوج الشابة ذات الحسن الرائع والجمال الذي يخلب الألباب فلا يكاد الكابتان ميخالي يراها حتى يؤخذ واذا هي قد ملكت عليه قلبه وعقله جميعاً. وأخذت الحسناء في العزف فسحرت اليوناني وأخرجته عن طوره ولكنه على ذلك يكظم حبه وغيظه ويضع اصبعين من أصابعه في كأس امامه ثم يفرج بينهما في عنف فيحطم الكأس ويسيل ما فيها من الخمر . وترى الشركسية ذلك فتسحرها وتبهرها هذه القوة وترمي زوجها التركي بنظرة فيها كثير من الازدراء وتتحداه سائلة اياه ان يفعل كما فعل أخوه . ونوري بك ينظر ويعجب ويأخذه الغيظ ويثيره التحدي ويهم ان يفعل مثل أخيه ثم يشفق ان يدركه الضعف واذا هو مستخذ متهالك . وقد نهض اليوناني فودع وانصرف وفي قلبه من الفتون والغيظ والحفيظة ما فيه . ويصل الى داره وقد اضمر شيئاً ولكنه يتهيأ لما أضمر فيقبل على لهوه ذلك يدعو اصحابه اولئك ويعكف معهم في نفق من انفاق الدار على الطعام والشراب والموسيقى ولكنه لا يتحرك للخمر ولا للموسيقى لا يبسم ولا ينطق وانما هو مغضب ينظر امامه ويشرب ويدخن ويخلي بين اصحابه وبين

ما يصنعون غير حافل بهم ولا ملتفت اليهم . وقد تعود أن يقضي معهم في لهوهم ذاك اسبوعاً كل ستة اشهر ، ولكنه في هذه المرة يقطع الاسبوع قبل ان يتقدم ويثور فجأة فيلهب اجسام اصحابه بالسوط حتى يخرجهم من النفق وهم سكارى لا يعرفون كيف يصنعون وقد خلا الى نفسه حتى سكت عنه الغضب شيئاً ثم ركب فرسه ومضى الى قهوة يجتمع فيها الترك من اهل المدينة وأسراتهم خاصة . فدخلها مقتحماً على ظهر فرسه وطرد منها روادها من الترك بسوطه وصياحه وأمر صاحبها ان يهيء له قدحاً من قهوة يشربها كما هو لا يترجل ولا يتخذ مجلساً . والترك يهمون ان يقاوموا ولكن عقلاءهم يردونهم عن ذلك اشفاقاً من العاقبة . وقد ذاعت فعلته هذه بين الترك فأثارتهم ، وبين اليونان فأخافتهم ، اراد اولئك ان ينقموا وأشفق هؤلاء من المذبحة ، وخاف بعض القوم بعضاً ، وكان الوالي اشد القوم خوفاً ، فجمع اليه سراة الترك وحاول ان يكفهم عن الشر مخافة الثورة وائتمر القوم وطال ائتمارهم ثم انتهوا الى ان اخذ نوري بك نفسه أمامهم بقتل الكابتان ميخالي فرضوا ورضي الوالي وأمره ان يتلطف في ذلك .

ومضت ايام لم يغير فيها الكابتان ميخالي من سيرته شيئاً بل جعل يغدو على عمله ويروح الى اهله ويركب فرسه بعد ذلك فيخرج من المدينة ويمضي امامه لا يلوي

على شيء يفرج عن نفسه بعض ما يملأ صدره من الغيظ والهم ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئاً فيعود الى داره غضبان أسفاً لا يكلم احداً ولا يكلمه أحد . وفي ذات يوم يخرج نوري بك من المدينة على جواده الأصيل ويمضي الى القرية التي يقيم فيها أخو الكابتان ميخالي وهو مثله كابتان قد خاض غمرات الحرب وقاد فيها فرقته وقتل فيها كثيراً من الترك وقد تحرج نوري بك من ان يعرض للكابتان ميخالي خوفاً منه او رعاية لما بينهما من اخاء فقصد أخيه ذاك يريد ان يقتله عقاباً له على اهانته للمسجد . ويلتقي الخصمان ويقتتلان ويقتل نوري بك أخا الكابتان ميخالي ولكن هذا لا يموت حتى يفعل بخصمه فعلة نكراء يضرب بخنجره بين فخذيه فيلغي رجولته إلغاء .

وقد عاد نوري بك الى داره كما استطاع وأوى الى سريره بين الحياة والموت وقام الأساة على جراحه يأسونها كما يستطيعون وسعى السعاة بموت اخي الكابتان ميخالي الى اهله اولاً والى الكابتان بعد ذلك فشغل اهل القتيل بجنازة قتيلهم وشارك فيها الكابتان . ورأى الكابتان بعد الفراغ من الجنازة ابن اخيه غلاماً لم يبلغ الحلم بعد ، رآه يتهيأ للثأر من قاتل ابيه . فرده عن ذلك ساخراً منه ومضى الى داره، ولكن الغلام لم يرتد وانما أخذ خنجر ابيه ومضى امامه لا يلوي على شيء غير حافل بزجر عمه ولا بنهي امه . ومنذ ذلك اليوم بدأت طلائع الثورة ..

فهذا الغلام لم يرح ولم يسترح حتى قتل غلاماً تركياً في مثل سنه من اقارب نوري بك ثم اشتد في العدو بعد ذلك لاجئاً الى الجبل فاحتمى به وأخذ الشباب يجتمعون اليه مغاضبين للترك خارجين على السلطان . وثارت ثائرة الترك بالطبع فهموا ان يبطشوا باليونان في مدينة كانديا عاصمة الجزيرة وفيما حولها من القرى . ولكن الوالي واصحاب المصالح منهم كانوا يمسكونهم ويصدونهم عن هذا البطش في كثير من العناء ايثاراً للعافية وانتهازاً للفرصة .

واضح ان الكابتان ميخالي قد أزمع الثأر لأخيه من نوري بك ولكنه جعل ينتظر شفاءه وجعل هذا الشفاء يبطيء وجعل اليونان يتحرقون شوقاً الى الانتقام وفي اثناء ذلك او قبل ذلك بقليل زلزلت الارض في الجزيرة زلزالاً يسيراً أخاف الناس وأخرج كثيراً منهم من بيوتهم . وخرجت بين الخارجين أمينه تلك الشركسية مذعورة تتبعها خادمها السوداء وقد ملكها الذعر فأغمي عليها ورأى ذلك كابتان يوناني شجاع يقال له بولكسنجيس وهو من اصدقاء الكابتان ميخالي فخف لنجدتها ولم يكد يراها حتى شغفته حباً .. وما هي الا ان تتصل الأسباب بينه وبين الشركسية واذا هو خليل لها قد انساه حبها او كاد ينسيه ما بين الترك واليونان من العداء . وهو يروح اليها اذا كان الليل من كل يوم وقد اخذ يعنى بشخصه وزيه وظهرت عليه آيات ذلك فيما كان يتضوع حوله من نشر المسك . ولم

يتحرج من ان يتحدث في ذلك الى صديقه الكابتان ميخالي فلامه فيه أعنف اللوم وكاد يصمه بالخيانة حتى فسد الأمر بينهما . ومن هنا تتعقد القصة من جهة ويشتد شبهها بالالياذة من جهة أخرى . فقد كان غضب أخيل في الالياذة ناشئاً عن ان اجامنون قد غصب جارية حسناء من أسراه .

وهذه الشركسية التي ملكت قلب الكابتان ميخالي يستأثر بها عدوه وأخوه نوري بك لأنه زوجها وان لم تحببه ويستأثر بها من ناحية اخرى صديقه وزميله في الحرب بولكسنجيس .

وهي تمنحه من عطفها ولطفها ما يشاء وان كانت فيما بينها وبين نفسها لا تحب الا ذلك الرجل القوي العنيف الذي رأته يحطم الكأس حين فرج بين اصبعيه .

وقد جاءت الانباء الى الكابتان ميخالي بأن نوري بك قد أخذ يبل من جراحته ثم جاءته الأنباء بأن شفاءه قد تم وبأنه قد اخذ يخرج في المدينة وفيما وراء المدينة على جواده ذلك الأصيل . فرأى ان قد حان الوقت للظفر بثأره . واقبل ذات يوم على قصر نوري بك فتلقاه صاحب القصر لقاء حسناً وعرف انه اقبل يطلب منه المبارزة وهمّ بأن يتحدث اليه في ذلك ولكن الكابتان ميخالي لم يلبث ان رآه ضعيفاً منهوكاً لا يكاد يقدر على شيء فانصرف عنه رفيقاً به يرى ان مبارزة مثل هذا الرجل

المجهود لا تليق بمثله وأحس نوري بك ذلك . فلم يلبث ان اسرع الى غرفته فأوصى بأن ينحر جواده على قبره ثم قتل نفسه . وبلغ الغضب بالترك اقصاه فثاروا باليونان وجعلوا يقتلون الرجال والنساء والاطفال وجعل القادرون على حمل السلاح من اليونان يفرون من المدينة وجعل رؤساؤهم والكابتان ميخالي خاصة يواعدونهم على اللقاء والتجمع في الجبل وما هي الا ان تصبح الثورة امراً واقعاً وتبلغ من العنف اقصاه ويضطر الوالي الى ان يقاومها بما يملك من قوة وجند .

ويشارك الرهبان في هذه الثورة أشد المشاركة فيحاصرهم الجند في ديرهم ويخف الثائرون لمعونتهم وقد اجتمع القادرون على الحرب من ابطال الثورات الماضية فاستأنفوا القتال كعهدهم به أيام الشباب . وتعاون الصديقان المختصمان في هذه الشركسية تعاوناً موقوتاً . وكانت هذه الشركسية قد أزمعت ان تتنصر وتتزوج خليلها . فلما شبت الثورة فرت الى القرية التي تقيم فيها اسرة هذا الخليل واقامت تتعلم اصول المسيحية والاقتران بصاحبها في يوم معلوم. وأقبل ذات ليلة بعض اليونان فانبأ الكابتان ميخالي بأن الترك قد اختطفوا هذه الشركسية . وأزمعوا العودة بها الى المدينة ليمسكوها على دينها ويعاقبوها على خيانتها . فيختار الكابتان ميخالي رهطاً من اصحابه ويسرع بهم في اثر هؤلاء الترك ويستنقذ منهم الشركسية ثم لا ينظر اليها وانما

يأمر أحد أصحابه بأن يذهب بها حتى يحرزها في بيت من بيوت اسرته هو .

فاذا عاد الى مكانه من الموقعة كان الترك قد انتصروا على الثائرين فحرقوا الدير وقتلوا رهبانه وفرقوا حماته وكان اليونان قد افتقدوا قائدهم ، فلم يجدوه اشد ما يكونون حاجة اليه . فلما عاد ورأى بقايا الدير تحترق ازمع ان يقاوم الترك ولو احترق كما يحترق هذا الدير . ولكنه على ذلك مشغول بالشركسية يريد ان يخلص منها ليفرغ للحرب . وهو لا يحفل بسخط اليونان عليه ولومهم له وتشهيرهم به . وانما يمضي حتى ينسل الى تلك الدار التي تقيم فيها الشركسية ذات ليلة فيطوف بها كاللص ثم يدخلها متلطفاً ويتجسس على الشركسية حتى يعرف الحجرة التي هي نائمة فيها فيسعى اليها خفيفاً حتى اذا وقف بازائها ملأ عينيه منها وقد افاقت الشركسية من نومها فرأت شخصه وعرفته ولكنه لم يمهلها وانما أغمد خنجره في صدرها ثم استله وانصرف به عائداً الى مكانه من الجبل متهيئاً لحرب الترك .

واتصلت الثورة ، ما استطاعت ان تتصل ، حتى مل الترك طولها وشدتها واشتد بلاؤها على اليونان وقد جعلت الامداد تصل من القسطنطينية وجعل اليونان يستيئسون من النصر وجعل الوالي يؤمن الثائرين ليعودوا الى الحياة العاملة ويجنحوا الى السلم وجعل النصح يصل من اثينا الى اليونان

بأن يضعوا السلاح ، وأخذ اليونان يسمعون لهذا النصح ويضعون اسلحتهم ويعودون الى اعمالهم يضمرون في نفوسهم انتهاز الفرصة لثورة أخرى حين تتيحها لهم الظروف الا رجلاً واحداً لم يقبل أمان الوالي ولم يحفل بجيوش الترك ولم يسمع لأمر الأسقف ولم يحفل بنصح أثينا وانما ظل رابضاً في الجبل ناصباً حربة للترك ومعه ابن اخيه ذاك الغلام ورهط من اليونان لا يبلغون العشرين وقد اخذ بعضهم يتركه حتى اذا مضى غير بعيد استخذى منه ثم عاد اليه . . وقد جاءه رسول ابيه الشيخ ينبئه ان أباه مشرف على الموت وانه يريد ان يراه قبل ان يموت ولكن الكابتان ميخالي يكلف رسول ابيه ان يعتذر اليه بأنه محارب وان يطلب اليه الدعاء له ويسمع الشيخ رسالة ابنه فيبتهج بها ويبارك عليه ويقبل عليه ابن أخ له قضى حياته في اوربا مبغضاً للحرب مؤثراً للسلم يقبل عليه وقد كلف من أثينا ومن الاسقف ان يلح عليه في وضع السلاح فيقنعه بايثار السلم، فاذا رآه لم يحفل به دائماً ونصح له بأن يعود من حيث أتى لأنه ليس صاحب حرب . ولكن الفتى يرى عمه في هذه القلة القليلة من الناس الذين يساقطون من حوله وأمام هذه الكثرة الكثيرة من الترك الظمأى الى دمه فيأبى العودة ويأخذ السلاح ويقبله عمه مباركاً عليه . وقد شد الترك على الكابتان ومن معه فأحاطوا

بهم وجعلوا يصرعونهم وكلهم يسقط صائحاً : الحرية او الموت .

والكابتان يفتك بهم فتكاً ذريعاً ولكنه يفتح فمه صائحاً بهذا الشعار فلا ينطق منه الا بكلمة الحرية ولا يحتاج الى ان ينطق بكلمة الموت لأن رصاصة نفذت بين شفتيه فملأت فمه وقلبه وجسمه موتاً .

ولم اعرض عليك من هذه القصة الا ايسر اليسير منها واو قد اردت تلخيصها كما ينبغي ان تلخص لضاق بها هذا العدد كله من «الجمهورية» . والذي تركته منها ابلغ وأروع من الذي لخصته ، فيه علم غزير بالحياة الاجتماعية والدينية لليونان والترك في تلك الجزيره . وفيه صور ، دقيقة للأفراد والجماعات والبحر والجبل والحقول والسماء وشمسها الساطعة في النهار ونجومها المتلألئة في الليل وفيه ألوان رائعة من الاساطير واحاديث الناس . ومهما أنس فلن انسى موت ذلك الشيخ أبي الكابتان ميخالي بعد ان بلغ المائة وأبلى في الجهاد واستكثر من المال والولد وعلم ابناءه وأحفاده الجهاد والموت . ثم اخذ يتعلم في آخر أيامه من حفيد صبي كتابة الاحرف اليونانية حتى اذا اتقنها وعرف كيف يكتب هذا الشعار جعل يطوف في القرية ويكتب على كل دار من دورها وعلى المسجد والكنيسة هذه الكلمات : الحرية او الموت . ثم يرسل الى اترابه الشيوخ الذين أبلوا مثله في حرب الترك حتى اجتمعوا حوله .

أمر فمدت لهم الموائد وطعموا حتى اسرفوا في الطعام وشربوا حتى أسرفوا في الشراب ثم دعاهم اليه فأحاطوا بفراشه في صحن الدار وفي ظل شجرة من شجرات الليمون فلما أطافوا به انبأهم بأن الموت مسرع اليه وبأنه يريد ان يعلم حقيقة يلقى بها الموت . فلما سألوه عن هذه الحقيقة قال لهم اريد ان اعلم من اين جئنـــا والى اين نمضي ! وحار الشيوخ في هذا السؤال وتكلموا فأكثروا ولكنهم لم يبلغوا مما أراد شيئاً . ولكن احدهم وهو المعلم الشيخ أخذ قيثارته وجعل يعزف عليها . واذا الموسيقى تملك على الشيخ المحتضر أمره وتلهيه عن الحياة والموت جميعاً واذا نفسه تفيض في دعة وأمن وسلام .

قلت في اول هذا الحديث ان القصة أروع ما قرأت في العام كله وأقول في آخر هذا الحديث اني اتمنى ان ارى هذه القصة مترجمة الى العربية ليقرأهـــا كل الذين يستطيعون ان يقرؤوها وليست ترجمتها عسيرة ففي مصر قلة يحسنون اليونانية الحديثة ويستطيعون ان يترجموا عنها في دقة وصدق واتقان . فليتهم يفعلون .

# تناقض

كان مؤتمر المجامع العربية منعقداً في دمشق اثناء الاسبوع الماضي .. وكان اعضاؤه على اختلاف اقطارهم غارقين الى آذانهم في حديث اللغة العربية ، يجادلون في نحوهـا واملائها وآدابها وعلومها مجتمعين ، ويخوضون في احاديث هذا كله حين ينفض اجتماعهم .. ويلتقون في المـآدب والحفلات ، وما اكثر المـآدب والحفلات التي اقيمت لهذا المؤتمر في دمشق .

وأقيمت على كرم قوامه الحب الخالص والود الصادق والاخاء المتين بين هذه الشعوب التي تأتلف منها الأمة العربية على اختلاف اقطارها وعلى اختلاف اوضاعها ايضاً .

كنا اذن غارقين في حديث اللغة العربية . وكان احدنا لا يكاد يخلو الى نفسه — وما أقل ما كان احدنا يخلو الى نفسه — الا فكر فيما سمع وفيما قال ؛ وقدر ما سيسمع

في غده وما سيقول .

وكان اظهر ما لاحظناه اثناء اقامتنا في العاصمة العربية الحبيبة الى النفوس بحاضر امرها كله وماضيه ان المثقفين من اهلها لا يحرصون علي شيء كما يحرصون على وحدة الأمة العربية . ولا يكلفون بشيء كما يكلفون باللغة العربية الفصحى ، يتقنون العلم بها ويتقنون اتخاذهـا لغة للخطابة والمحاضرة واتخاذها لغة للحديث والحوار . ولا ينحرفون عن ذلك الا حين يتبسطون في احاديثهم ويعمدون الى الفكاهة والدعابة . فاذا اخذوا في الجد من الامر عادوا الى لغتهم العربية صافية كأحسن ما يكون الصفاء ، نقية كأرق ما يكون النقاء .

وهم لا يحسنون الحديث والمحاضرة والخطابة وحدها في هذه اللغة الفصحى .. ولكنهم يحسنون الحفظ والرواية لما قيل في الماضي ولما يقال في هذه الايام ايضاً . قد وثقوا صلتهم بهذه اللغة العربية الفصحى وآدابها توثيقاً غريباً . فهم يروون لك حديث القدماء في شعرهم ونثرهم ومحاوراتهم ومحاضراتهم . وهم يروون لك الكثير من آثار المحدثين في وطنهم وفي الاوطان العربية الاخرى . قد حفظوا ذلك حفظاً جيداً كأنهم وقفوا انفسهم عليه ولم يحاولوا غيره من شئون الحياة .

اثناء هذا كله وصلت الينا «الجمهورية» وقرأنا فيها حديثاً عجباً ينسب الى عضو من اعضاء المجمع اللغوي

المصري الذي كان يمثله في ذلك المؤتمر اربعة من اعضائه . وفي هذا الحديث مطالبة بالغاء النحو العربي والانصراف عن الاعراب في اواخر الكلمات والاكتفاء بتسكين أواخر الكلمات هذه ، ايثاراً للراحة والعافية ورغبة في تسيير الاتصال بين الادباء والشعب .

ولا احدثك عن وقع هذا الرأي في نفوس المثقفين من السوريين وغيرهم من اعضاء المؤتمر . فأنت تستطيع ان تقدر هذا الوقع ، وان تتصور هذا الفرق الخطير بين حرص اخواننا السوريين واخواننا من العرب عامة على صفاء اللغة العربية ونقائها . واستخفافنا نحن وزهدنا فيه وامعاننا في ان نصرف الناس عنه ونغريهم بالتخفف منه .. او الترفع عنه ان شئت .

واستخفافنا بأمر اللغة الفصحى وضيقنا بنحوها وقديمها ، كله شائع مألوف قد عرفناه في هذه الايام خاصة وتحدثنا فيه فأكثرنا الحديث . ولكني اعترف بأنه لم يؤذني قط كما آذاني حين كنت في دمشق بين هؤلاء الناس ، لا يضيقون بشيء كما يضيقون بأيسر التفريط وأهون التقصير في ذات الوحدة العربية وفي ذات اللغة العربية خاصة ، لأنهم يرون هذه اللغة قوام هذه الوحدة التي تطمح اليها الشعوب العربية كلها وتجاهد في سبيلها اعنف الجهاد وأقواه ، وتتهيأ لاحتمال ما قد يفرض عليها هذا الجهاد من الاثقال والأعباء والتضحيات .

وأغرب ما يلاحظ هؤلاء الاخوان من العرب ، وما ألاحظ معهم ، ان في مصر كتّاباً وادباء يناقضون انفسهم اشد المناقضة . ويناقضون حكومتهم اشد المناقضة ايضاً ، بل يناقضون دستورهم مناقضة اقل ما تدل عليه هو انهم لا يحفلون بشيء ولا يرجون لشيء وقاراً . فهم يدعون الى الوحدة العربية ويلحون في الدعوة اليها . وحكومتهم تدعو الى هـــذه الوحدة وتجد في العمل لها ، وفي ابتغاء الوسيلة اليها ، وتبذل في ذلك جهوداً صادقة موفقة .

ودستورهم يعلن ان مصر جزء من الوطن العربي ، وان اللغة العربية هي لغتها الرسمية . اذ هم بعد ذلك ، وعلى رغم ذلك يستخفون باللغة ويريدون ان يتخلصوا منها ، ولا يتردد بعضهم في ان ينصرف عنها الى اللغة العامية ، مجاهراً بذلك لا يستخفي به ويتحفظ فيه ، ولا يتردد بعضهم الآخر في ان يطالب بالغاء النحو او في ان يطالب بالغاء الاعراب وتسكين الكلمات مع انه عضو في المجمع اللغوي المصري ، ومع ان قبوله لعضوية هذا المجمع يلزمه العمل بقانونه ، ويلزمه تبعاً لذلك ان يحافظ على سلامة اللغة العربية الفصحى وصيانتها من العبث والفساد .

هذا التناقض الذي يتورط فيه كتّابنا وأدباؤنا ، ولا يجدون فيه حرجاً او جناحاً ، ظاهرة خطيرة حتماً تدل اول ما تدل على اننا قد دفعنا الى لون من التهاون في التفكير والتدبر والحكم على الاشياء والسيرة في الحياة العامة

والخاصة ايضاً .

فأيسر ما يجب على الرجل العاقل لنفسه ولوطنه ولمواطنيه ان يحرص على ان يكون تفكيره مستقيماً ما وسعه الحرص ، وأن يلائم بين تفكيره الذي يخلو به الى نفسه ورأيه الذي يعلنه الى الناس وسيرته التي يسيرها بين الناس .

انهم وهم يدعون الى الوحدة العربية صادقين لا ينبغي ان يهدموها في نفس الوقت الذي يدعون اليها فيه . وأي هدم للوحدة العربية اعظم خطراً وأعمق اثراً وأسوأ عاقبة من اضعاف اللغة التي تجمع بين العرب والاستخفاف بها او الانصراف عنها . ومن الدعوة الى الا تكون لهذه الامة العربية لغة جامعة توحد تفكيرها وتتيح لشعوبها المختلفة ان يفهم بعضها عن بعض ، وان يقرأ بعضها آثار بعض قراءة مباشرة لا تحتاج الى نقل ولا الى ترجمة ، وأن يتحدث ساستها وأدباؤها وعلماؤها فلا يحتاجون الى ان يقوم بينهم المترجمون ينقلون الى بعضهم احاديث بعض .

فالغاء النحو او الغاء الاعراب وارسال الكلام ارسالاً في غير رعاية لقاعدة ولا تحفظ من خطأ ، لا نتيجة له الا ان يصبح المصريون والسوريون والسعوديون وغيرهم من الشعوب العربية كالفرنسيين والايطاليين والاسبانيين قد نشأت لغاتهم المختلفة عن لغة قديمة ماتت وقامت مقامها هذه اللغات الحديثة فتفرقت الأهواء والآراء وذهب كل شعب مذهبه في الحياة وأصبح ساسة هذه الشعوب وعلماؤها وأدباؤها

لا يلتقون الا احتاجوا الى التراجم واصبحت كتب هذه الشعوب لا يمكن تبادلها الا عن طريق الترجمة ، واصبحت لغاتها المختلفة تدرس في المدارس ليتهيأ المترجمون والناقلون . وليظهر بعضهم على ثقافة بعض بواسطة الترجمة والنقل .

وينبغي ان يتصور القارىء هذا العبء المبهظ الثقيل الذي سنضطر تلاميذنا من الاجيال المقبلة الى النهوض به ، فلن نعلمهم اللغة العربية واللغات الاوروبية الكبرى فحسب . ولكننا سنضطر الى ان نعلمهم لغات جديدة لا عهد للعالم بها الى الآن ، وهي هذه اللغات التي ستمتاز حين يصبح لكل وطن عربي لغته الخاصة .

وسيصبر امر الدين نفسه بالقياس الى المسلمين من العرب الى مثل ما صار اليه امر الدين المسيحي بالقياس الى الأمم اللاتينية .

سيقرأ القرآن في غير فهم الا ان يترجم الى قارئيه في لغاتهم الخاصة وسيصلي المسلمون من العرب بقرآن لا يفهمون منه شيئاً كلما بعد العهد باللغة الفصحى ، وستصير الوحدة العربية التي نطلبها ونجد في سبيلها الى ان تصبح وهماً من الأوهام لا سبيل الى ان يحققه العقل ، فضلاً عن ان يتحقق في الحياة الواقعة .

كل هذا لسبب يسير ، هو ان طائفة من كتابنا وأدبائنا لا يأخذون الأمور مأخذ الجد . وانما يعيشون كما يستطيعون ، مستخفين بكل شيء ، غير حافلين بهذا التناقض الخطير

بين ما يقولون وما يفعلون ، وغير حافلين بأنهم يريدون بناء الوحدة العربية ويريدون في الوقت نفسه هدم هذه الوحدة ، واقامة المصاعب والعقبات التي تجعل تحقيقها امراً محالاً .

وفيمَ يطالب المطالبون بالغاء نحو هذه اللغة العربية ؛ لأنهم لم يتعلموها في المدارس اثناء الصبا والشباب كما كان يجب ان يتعلموها .

واذا كان الجهل بشيء من الأشياء يكفي المطالبة بالغائه . فما يمنعنا بأن نطالب بالغاء اكثر العلوم لأن ادباءنا لا يعرفونها ولا يستطيعون التصرف فيها .. واذا كانت صعوبة شيء تغرينا بالانصراف عنه والزهد فيه ، فما اسخف الذين يضيعون اوقاتهم ويهدرون جهودهم ويكلفون انفسهم ألوان المشقة والعناء للنهوض بعظائم الامور وجلائل الاعمال .

وقد كنا نتعلم فيما مضى من الزمان ان الحياة جهاد ، وانها ليست يسراً كلها ، وان مطالب الحياة ليست قريبة ولا دانية القطوف . وانما هي عسيرة بعيدة ، يجب السعي اليها والجد في طلبها واحتمال المشقة في تحصيلها . فأصبحنا الآن نطمئن الى الدعة والراحة وننتظر ان تساق الينا حاجاتنا ونحن وادعون لا نتكلف في سبيلها جهداً ولا عناء .

ولست اعرف شيئاً يلقى من الظلم مثل اللغة العربية . يجهلها قوم فيعرضون عنها ويدعون الى الغائها ، ويجهلها قوم آخرون فيعسرون امرها اشد التعسير ويلحون في المحافظة

عليها كما تركها القدماء لا يبيحون فيها تجديداً ولا يسمحون لها بالتطور ، وانما يفرضون عليها جموداً لا يفهمونه ولا يقدرون عواقبه . وجدوا آباءهم على أمة فهم على آثارهم مقتدون . شأنهم في ذلك شأن الجاهلية العربية الأولى التي كانت تكره الانحراف عن اوثانها .

وكذلك تضيع اللغة العربية ، وتضيع الوحدة العربية ايضاً ، ويضيع التراث العربي كله بين المسرفين في المحافظة ، والمسرفين في التجديد . والناس جميعاً يقولون ان خير الأمور اوساطها ، ولكن ما اكثر ما يقال وما اقل الفهم لما يقال .

وبين غلو المحافظين والمجددين طريق وسطى تحفظ على اللغة العربية حياتها اولاً وصفاءها ونقاءها ثانياً ، وتهيء للأمة العربية وحدتها المرجوة . وهذه الطريق الوسطى هي طريق التيسير . ولكن حديث هذا التيسير يطول فلنعد اليه في حديث آخر . ومن يدري لعله لا يبلغ قلوب الغلاة من المحافظين والمجددين جميعاً . فقد اتبع اولئك وهؤلاء اهواءهم . ولم يخطىء الشاعر القديم حين قال :

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى
الى بعض ما فيه عليك سبيل

# بين القصرين

قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ

فقد اتيح له في هذه القصة الرائعة البارعة نجاح ما ارى أنه أتيح له مثله منذ أخذ المصريون ينشئون القصص في اول هذا القرن .

ولكن الادب المعاصر كغيره من الآداب على اختلاف عصورها وكغيره من الانتاج العقلي شيء نفهمه نحن ولا يفهمنا ، ونقدره نحن ولا يقدرنا ونشعر نحن بما يتاح له من نجح وما يفرض عليه من اخفاق ولا يشعر هو برضانا عنه او سخطنا عليه .

فلأقدم تهنئتي اذن كأصدق واعمق ما تكون التهنئة الى كاتبنا الاديب البارع نجيب محفوظ ولاقدمها اليه بلا تحفظ ولا تحرج فهو جدير بها حقاً لانه اتاح للقصة ان تبلغ من

الاتقان والروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذي يشبه السحر ما لم يتحه لها كاتب مصري قبله .

وما اشك في ان قصته هذه « بين القصرين » تثبت للموازنه مع ما شئت من كتاب القصص العالميين في اي لغة من اللغات التي يقرأها الناس .

وما رأيك في قصة تتجـــاوز صفحاتها المئات الاربع وتقرأها منذ تبدأ الى ان تنتهي فلا تحس بها ضعفاً ولا تشعر فيها بفتور في اي موقف من مواقفها ولا تثير فيك احساساً بان الكاتب على اطالته قد ادركه شيء من الاعياء او اصابه شيء من التراخي او ناله ما ينال الكتاب المطولين من هذا الجهد الذي يدعو الى شيء من الراحه والتنفس في ذلك .

بل ما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الاربع وتقرأها انت فلا تشعر في اي وقت من اوقات القراءة بالحاجة الى ان تستريح منها الى غيرها من الكتب او تستريح من القراءة الى غيرها من الوان العمل وانما يتجدد نشاطك الى المضي في قراءتها دون ان يجد الملل او السأم او الضعف او الفتور الى نفسك سبيلاً . وانت جدير ان تأخذ في قراءتها فلا تدعها حتى تتمها لولا ان ظروف الحياة تحول بينك وبين ما يجب من ذلك وتضطرك الى الوقوف لتأتي عملاً لا تستطيع تأجيله او تقرأ شيئاً لا سبيل الى ارجاء قراءته .

ثم انت لا تكاد تفرغ من هذا العمل الذي صرفك عنها حتى تعود اليها مدفوعاً الى هذه العودة دفعاً لا تستطيع مقاومته ولا الامتناع عليه .

بل انت لا تفرغ من هذه القصة لتنصرف عنها الى غيرها من فنون القراءة والوان العمل وانما انت مضطر الى ان تفكر فيها تفكيراً طويلاً متصلاً وربما اخذت فيما يجب ان تأخذ فيه من اعمالك وقراءاتك فيما يجب ان تضطرب فيه من شؤون الحياة ولكنك ترى نفسك بين حين وحين مضطراً الى ان تعود الى التفكير فيها والاعجاب بها والثناء عليها بينك وبين نفسك والتحدث عنها الى الناس حين تلقى الناس.

تقف بعقلك وقلبك عند هذا الموطن من مواطنها او هذه الصورة من صورها فلا تكاد تتحول عنه الا لتقف عند موطن آخر او صورة اخرى .

وقد يمضي الوقت الطويل بعد فراغك من قراءتها واذا انت على ذلك تعود اليها فترى انك لم تنس منها شيئاً لان قراءتك الاولى لها قد ثبتت احداثها وصورها واحاديثها في نفسك تثبيتاً .

بهذا كله شعرت انا وبهذا كله شعر غيري من القلة الذين لقيتهم وتحدثت اليهم عنها فاذا هم قد قرأوها وتأثروا بها كما تأثرت وقدروها كما قدرتها واحسوا من روعتها مثل ما احسست والحت على عقولهم وقلوبهم كما الحت على عقلي وقلبي .

ومصدر هذا كله فيما ارى ان الكاتب يحقق في هذه القصة تحقيقاً رائعاً خصلتين يبلغ بهما الاثر الادبي اقصى ما يقدر له من النجح وهما الوحدة التي لا تغيب عنك لحظة والتنوع الذي يذود عنك السأم ويخيل اليك انك تحيا حياة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والاحداث .

فانت تتنقل في كل هذه المظاهر والمناظر والاحداث لا كما يتنقل المتنزه في بستان يختلف فيه الزهر والثمر والشجر بل كما يتنقل الانسان في حياة مضطربة لا يمر يوم من ايامها او ساعة من ساعاتها الا لقيه فيها حدث من الاحداث يرضيه احياناً ويسخطه احياناً، يثيره مرة ويرده إلى الهدوء مرة اخرى .

والقصة إجتماعية بأدق معاني هذه الكلمة لانها تصور بيئة مصرية معينة في عصر بعينه من عصور هذا القرن تصور بيئة رجالها من التجار المترفين في الاحياء القديمة من القاهرة وفي اثناء الحرب العالمية الاولى واعقابها ونساؤها من المحصنات الغافلات المحجبات اللاتي لم يباغن التطور الحديث بعد فلبثن محتفظات بعادات القرن الماضي في البيئات المصرية الخالصة وشبابها مختلفون يمتازون بما يمتاز به الشباب في عصر من عصور الانتقال ، منهم الجاد الذي لم يدركه خمود ولا خمول فهو طامع الى ان يتعلم ويبلغ من التعليم ارقاماً كانت تتاح للشباب في ذلك العصر . ومنهم الكسل الذي لا يتجاوز الشهادة الابتدائية ويقنع بعمل كتابي في

مدرسة النحاسين ، وصبيتها من هؤلاء الذين عرفناهم اول القرن في تلك الاحياء القديمة في القاهرة يختلفون الى المدارس كارهين لها حرصاً مع ذلك عليها ويعبثون في الطريق بينها وبين الدار ويتفكهون حين يتاح لهم ذلك بالوقوف عند بائع البسبوسة وتأتلف عقولهم الناشئة من هذه الاحاديث المختلطة المتناقضة التي يسمعون بعضها من معلميهم في المدرسة ويسمون بعضها الآخر من امهاتهم اذا راحوا الى الدور .

ويؤلفون بين هذه المتناقضات مزاجاً لا هو بالجديد الخالص ولا هو بالقديم الخالص وانما هو شيء بين ذلك يعجب ويروق . وبناتها معجبات غافلات ايضاً يتحرصن مع ذلك من اختلاس النظر بين حين وحين من ثقوب المشربيات الى ما يجري في الشارع ومن يمر فيه من الشباب . والاسرة التي اتخذت محوراً لهذه القصة تقيم في ذلك الشارع القديم بين القصرين رئيسها تاجر من تجار الحي قد جاوز الشباب ولم يبلغ الشيخوخة بعد وهو انيق مترف رائق المنظر والمظهر لا يكاد يخرج من داره حتى يكون صورة رائعة للترف والوقار اثناء النهار وصورة رائعة للعبث والمجون شطراً من الليل ولا يكاد يعود الى داره حتى يكون صورة مروعة للجد والصرامة والحزم والتحكم ما اقام فيها .

وهو قد ملأ الدار واهلها اعجاباً به وحباً له وخوفاً منه يبلغ الذعر والهلع .. تحبه زوجه كل الحب وتفرق

منه كل الفرق فهي خادم له تدعوه سيدها وتسهر منتظرة عودته وتضيء له طريقه الى حجرته متى عاد . هي خادم ولكنها خادم عاشقة وبناتها وابناؤه يسلكون طريق امهم في الخوف والفرق والاعجاب والحب .

وله ابن من غير زوجته هذه خامد خامل وتعس بائس قنع بعمل في مدرسة النحاسين وقد طلقت امه لسوء سيرتها وهو يعلم ذلك حق العلم ويشقى به أشد الشقاء .

وهو يسلك طريق ابيه لا في الجد والنشـــاط ولا في الوقار والاحتشام بل في العبث والمجون . وعلى هذه الأسرة تختلف احداث الحياة هادئة مطردة اثناء الحرب ثم عنيفة مضطربة حين تضع الحرب اوزارها وتشب الثورة وينفى سعد زغلول .

وقد قلت ان القصة اجتماعية لأنها تصور هذه الاسرة والبيئة التي تضطرب فيها وما يختلف عليها من صغار الأحداث وكبارها ما يحزن منها وما يسر ولكن للقصة وجهاً آخر فهي تاريخية بأدق وأعمق وأوسع وأبرع معاني هذه الكلمة فلست اعرف قاصاً صور الثورة المصرية في أعقاب الحرب العالمية الأولى كما صورها الاستاذ نجيب محفوظ .

صورها حية كأقوى ما تكون الحياة، وصورها متغلغلة في أعماق الشعب على اختلاف طبقاته مستأثرة بالقلوب والألباب مؤثرة في حياة العابثين والجادين جميعاً وفي حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعاً مغيرة وجه الحياة المصرية تغييراً تاماً .

وصورها بما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم ، وجود الشيوخ بأموالهم ، وجود الأمهات والأخوات بأمانيهن ودعائهن .

وصورها بما فيها من قسوة الانجليز وبطشهم وغدرهم واستخفافهم بكل شيء وبكل انسان وبكل مكانة وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين .

صور هذا كله أروع تصوير وأبرعه وأقساه لا بالألفاظ الرائعة المنمقة بل بالأحداث التي تفطر القلوب وتمزق النفوس .

ولست اقف في هذا الحديث عند ما في القصة من هذه الصور الأخاذة الخلابة التي لا تحصى لأن هذا يطيل الحديث اكثر مما تتحمل «الجمهورية» بل اكثر مما تتحمل صحفنا السيارة في هذه الايام .

لا أقف عند صورها الهادئة التي تعجب وتروق ولا عند صورها المثيرة التي تملأ النفوس حزناً وجزعاً احياناً وتملأها ايماناً وأملاً أحياناً اخرى وتملأها ثقة بمصر دائماً، لأني ان حاولت ذلك لن أفرغ منه وانما أعيد ما قلته في اول هذا الحديث من ان هذه القصة هي أروع ما قرأت من القصص المصري منذ اخذ المصريون يكتبون القصص ومن انها تثبت للموازنة مع ما شئت من القصص في اي لغة من اللغات التي يقرأها الناس وأضيف الى ذلك ان روعة القصة لا تأتي من هذا الخصال التي أشرت اليها

آنفاً فحسب ، وانما تأتي من لغتها ايضاً فهي لم تكتب في اللغة العامية المبتذلة ولم تكتب في اللغة الفصحى القديمة التي يشق فهمها على أوساط الناس وانما كتبت في لغة وسطى يفهمها كل قارىء لها مهما يكن حظه من الثقافة ويفهمها الأميون ان قرئت عليهم .

وهي مع ذلك لغة فصيحة نقية لا عوج فيها ولا فساد .

وقد تجرى فيها الجملة العامية أحياناً حين لا يكون منها بد فيحسن موقعها وتبلغ منك موقع الرضى .

وأكبر الظن ان الاستاذ نجيب محفوظ قد وفي للجامعة التي تخرج فيها أصدق الوفاء وأقومه :

وفى لها بالعمل الصادق المنتج فأثبت انها لم توجد عبثاً وانها لم تخرج العلماء فحسب وانما أخرجت معهم الأدباء البارعين ايضاً وأخرجت معهم ابرع القصاص المصريين كذلك .

وكل شخصية في هذه دليل واضح قاطع على ان الاستاذ نجيب محفوظ قد انتفع بما سمع في كلية الآداب من دروس الفلسفة . لم يصبح فيلسوفاً ولا مؤرخاً للمذاهب الفلسفية وانما أصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعاً في تعمقها وتحليلها . قادراً على ان يضع يد قارئه على أسرارها ودقائقها .

وحسبك بهذا كله نجحاً للجامعة ونجحاً لخريجها نجيب محفوظ .

# دموع إبليس

ولمَ لا يبكي ابليس ! فالكاتب الأديب لا يعجزه ان يضحك الشياطين وأن يبكيهم ، ويفعل بهم الأفاعيل وهو قادر كذلك على ان يضحك الملائكة وان يبكيهم ويجرى عليهم ما يشاء من الأحداث وما اكثر ما استباح الأدباء لأنفسهم العبث بالملائكة والشياطين جميعاً وان كان كتّابنا من العرب قد تحرجوا من ان يفعلوا بالملائكة مثل ما يفعلون بالشياطين لأن للملائكة شيئاً من التقديس يعصمهم في بيئاتنا من عبث الخيال .

اما الشياطين فقد تقدم الله عز وجل الينا في ان نبغضهم ونبرأ منهم ونستعيذ من شرهم ونلعنهم ان جال خاطرهم برؤوسنا او جرى ذكرهم على ألسنتنا وهم يعبثون بالناس فما يمنع الناس ان يعبثوا بهم والادباء من الشعراء والكتاب اقدر الناس على هذا العبث بهم يعينهم على ذلك خيالهم القوي النفاذ وما اتيح لهم من قدرة على تصريف الكلام ومن

قوة على ان يذهبوا به كل مذهب ، فهم يصورون الشياطين جادين حيناً وعابثين احياناً ، يتخذون تصويرهم سبيلاً الى الموعظة والعبرة ويتخذون تصويرهم سبيلاً الى التلهيــة والفكاهة . والأدب الشعبي بارع في العبث بالشياطين وفي العبث بالجن على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم . وأيسر القراءة في هذا القصص يبين لك عن سبق هذا الأدب الشعبي الى تسخير الجن لحاجة الانسان يأخذ ذلك مأخذ الجد حينــاً ومأخذ اللهو احياناً . وقلما تخلو قصة من قصصنا الشعبية من اخبار الشياطين والجن على وجه عام .

ومن المعروف ان الأدب الشعبي قد جعل للعشق بين الجن والانس سبيلاً ، فما اكثر ما يحب رجال الجن ونساؤهم رجال الانس ونساءهم ، وربما احب الانسان جنيّة وتجشم في سبيلها الأهوال كما نرى في قصة حسن البصري من قصص ألف ليلة وليلة . وقد استقر في نفوس العامة ان الحجاب قد يرفع بين الانس والجن او بين افراد من أولئك الجن وهؤلاء . وما اكثر ما كان العرب القدماء يتحدثون عن اولئك الجن الذين كانوا يتصلون بالكهان من رجال الانس ونسائهم فيتحدثون اليهم بأنباء الغيب . وقد عنيت الآداب الاوروبية بالجن اكثر مما عني بهم ادبنا العربي فكثر إنتاج الأدب الرفيع في اللغات الاوروبية المختلفة عما يكون بين الجن وبعض الناس من صلات . ولست في حاجة الى ان اتحــدث من اسطورة فوست التي ألهمت نفراً من ادباء الانجليز والألمانيين ادباً ممتازاً والتي انتهت الى هذه الآية

العالمية المعروفة من آيات الشاعر العظيم جوته . والتي لم تقف عند الانتاج الأدبي وحده ولكنها تجاوزته الى الموسيقى فأحدثت فيه آيات رائعة . ومنذ عرف الناس من الديانات السماوية امر الشيطان وما كان من معصيته لله وطرده من جنته تأثروا بهذا الشيطان في آدابهم وفنونهم على اختلافها . وأثر الشياطين في انتاج المصورين والمثالين خاصة أظهر وأشهر من ان نحتاج الى ذكره او الخوض فيه .

وآخر ما قرأته من الأدب الرفيع المتصل بالشيطان في الانتاج الاوروبي كتاب غريب ألفه الكاتب الايطالي المعروف الذي توفي منذ وقت قريب وهو يابيني وهو كتاب اشبه بالدراسة الدينية منه بالأدب الخالص . درس فيه الكاتب رأي الأمم المختلفة في الشيطان وتصوير الديانات كلها له وحكمها عليه ثم انتهت به دراسته الطويلة الممتعة الى ان الشيطان سيظفر بمغفرة الله له ورضاه عنه . وقد حظرت الكنيسة بالطبع على المؤمنين من الكاثوليك قراءة هذا الكتاب ولكن الناس على ذلك قرأوه واكثروا القول فيه . وقد عني ادباؤنا المحدثون بالشيطان فصوروه صوراً مختلفة فيها الجد وفيها العبث .

والغريب ان توبة الشيطان وطموحه الى مغفرة الله ألحت على بعض كتابنا في نفس الوقت الذي ألحت فيه على الكاتب الايطالي الذي اشرت اليه آنفاً .

فالأستاذ سعيد العريان يصور طموحه الى التوبة وعجزه

عنها بأن امرأة غالبته على امره والاستاذ توفيق الحكيم يصور الشيطان طامعاً في التوبة ملحاً فيها مبتغياً اليها الوسائل ولكن أئمة الديانات السماوية يأبونها عليه لانهم لا يملكون قبولها منه وهو يرقى الى السماء فيرد عنها لأن القضاء قد سبق بأن مكانه ليس فيها وذلك في قصة الشهيد . والاستاذ تيمور يصور مكره ودهاءه وعجزه مع ذلك عن ان يتفوق على الانسان في بعض الأحوال وذلك في قصة « اشطر من ابليس » . اما الاستاذ فتحي رضوان فانه لا يفكر في شيء من هذا ولا يسلك سبيله الى شيء يشبهه وانما يجري على الشيطان ما يجري على الانسان من احداث الحياة ويجعله بطلاً للصراع بين الخير والشر وبين الفضيلة والرذيلة . وأنت تقرأ القصة فلا تجد فيها رمزاً ولا ايماء وانما تجد فيها تصريحاً واضحاً كل الوضوح منذ تبدأ القصة الى ان تفرغ منها فالأشياء مسماة بأسمائها والأشخاص مسمون بأسمائهم والأحداث تقع في ارض يسكنها الناس ويشقون فيها ويسعدون ويحسنون فيها ويسيئون . وانت تستطيع ان تضع هذه الارض حيث شئت من بلاد الله . تستطيع ان تتخيلها في مصر لأن الاسماء امامك كلها عربية ولان البيئة تشبه بيئاتنا المصرية في القرى وتستطيع ان تتخيلها في بلد آخر لأن الشقاء والسعادة والغنى والفقر والنعيم والبؤس كل ذلك يعرض للناس حيث يكونون . ومع ذلك فأنت تشعر اثناء القراءة بأن احداث القصة تقع في عالم آخر قريب من الارض

ولكنه بعيد عنها يوشك ان يكون فيها . لولا ان هؤلاء الأشخاص الذين يذهبون ويجيئون ويختصمون ويتفقون يحيط بهم شيء من الغرابة يدنيهم منك وينئيهم عنك فهم بين بين . وهذا اول ما يرضيك عن هذه القصة لأنه يخرجك من الاطوار المألوفة للناس دون ان يبعدك عنهم فأنت حين تقرأها توشك ان تكون في شيء يشبه الحلم وان كان ادنى الى الحق منه الى الحلم . ولست ادري كيف يكون موقع هذه القصة من النظارة المصرية لو عرضت عليهم ممثلة تمثيلاً متقناً كل الاتقان . أيصبرون عليها أم يقصرون عن المضي معها الى آخرها .

ذلك ان القصة صارمة صرامة متصلة لا يكاد الضحك او الفكاهة يلمان بها الا قليلاً . وصرامتها تأتيها من ان كاتبها يفلسف كل شيء ويفلسف كل كلمة من كلماتها . فموضوعها نفسه فلسفي وهو الصراع بين الخير والشر في حياة الانسان والشيطان جميعاً . وحوارها فلسفي منذ يبدأ الى ان ينتهي لا يعرض لما يعرض للطبيعة ولا لفلسفة العلم ولا يبعد عن الناس ولكنه قريب منهم عسير عليهم فهو تحليل دقيق صادق فيه كثير من الروعة ولكن من هذه الروعة الصارمة التي لا تحب لعباً ولا تندراً فيه تحليل دقيق صادق رائع لأعمال الناس واخلاقهم وما يجول في نفوسهم من خواطر وما يضطرب في قلوبهم من عواطف . وفي هؤلاء الاشخاص سادة وخدم وفيهم اغنياء وفقراء وفيهم

مثقفون وجاهلون ولكنهم على ذلك يفهم بعضهم عن بعض وكلهم يتكلم بالحكمة حتى حين يعبث وهم متساوون فيما بينهم لا يمتاز بعضهم من بعض الا بهذه الاعراض التي تفرق بين السعيد والشقي . والحب هو الموضوع الذي يقف عنده الكاتب فيحلله ادق تحليل وأعمقه ويخلع عليه اخص صفاته وأقواها وهو انه يتسلط على القلوب جميعاً . قلوب الاغنياء والفقراء والقادرين والعاجزين والآملين واليائسين بل يتسلط على الانسان والشيطان يُشقي كليهما غالباً ويسعد كليهما احياناً ويورط كليهما في الاثم حين يريد ويرفع كليهما الى الايثار حين يريد ايضاً . والبر يأتي بعد الحب في المنزلة فهو ماثل امامك في القصة منذ تبدأ الى ان تنتهي .

هذه فتاة حسناء بارعة الجمال ، جمال الجسم وجمال النفس ايضاً، لا يراها احد الا فتن بجمالها الرائع للنظرة الاولى ، وهي خيرة او قل انها الخير الخالص لا يصدر عنها الا الاحسان في كل ما تعمل وكل ما تقول . هي ملك من السماء اهبط الى الارض ليملأها براً وعطفاً واحساناً . وهي تحب الناس جميعاً وتريد ان تبرهم جميعاً وتبلغ من ذلك شيئاً كثيراً وقد احبها شخص في دارها يشبه الخادم ولكنه لا يكاد يتحدث الى سادته حديث الخدم الى السادة ، بل هو يتحدث اليهم كأنه احدهم وربما خافوا منه واشفقوا من جده المر وفكاهته اللاذعة وهو ترب هذه الفتاة قد ولد في نفس اليوم الذي ولدت فيه ودرج معها وشاركها

في اللعب اثناء الصبا وقد احبها حين تقدمت بها السن ولكنه كتم حبه كما يفعل اليائس . وأين هو منها وأين هي منه . وقد اقبل الى هذه القرية ذات يوم شاب كريم وسيم لم يكد يلم بها حتى احبه الناس ومالت قلوبهم اليه وهو ظاهر التقوى عرف الناس منه ذلك فسموه ولي الله .

وهذا الشاب قد رأى الفتاة فأحبها ولكنها ممتنعة عليه تنازعها نفسها الى ان تستجيب له لولا انها تؤثر الخير والطهر والنقاء فهي اشبه بالقديسات منها بأمثالها من الفتيات ولكن الشاب يلم بالدار ذات صباح ويخلو الى الفتاة فيفتنها عن نفسها وعن البر بالناس والاحسان اليهم وعن الطهر والنقاء جميعاً . واذا هي تستسلم له ساعة من نهار او ساعة من ليل . ولا تكاد تثوب الى نفسها بعد ذلك حتى يأخذها ندم عنيف يصرفها عن هذا الشاب صرفاً ويشغلها مع ذلك عما ألفت وألف الناس من برها بهم ورعايتها لهم فهي تنفق حياتها في ذهول متصل حتى انكرها ابوها وانكرها اهل الدار وفطن الخادم الذي اشرت اليه آنفاً لأمرها فأزمع قتل هذا الشاب .

وليس هذا الشاب الا ابليس نفسه قد اقبل على هذه القرية ضيقاً باحسان هذه الفتاة في اكبر الظن مزمعاً ان يصرفها عنه . فلم يكد يراها من قريب حتى ملكت عليه امره فأحبها وكان بينهما ما كان .

وهو الآن يرى ندم هذه الفتاة بعد كبوتها فيألم له ثم

يشاركها في الندم ثم يسيطر الندم عليه فيأتي اليها تائباً مستغفراً ملتمساً منها العفو والرضى ولكنها تزجره وترده أعنف الرد وتنبئه بأنها حامل وبأنها لن تعيش بعد هـــذه الخطيئة فيجثو امامها متوسلاً فاذا اتت عليه وأيأسته من العفو ذرف دموعه ندماً وحسرة فبكى الشيطان لأول مرة .

ويمضي بعد ذلك عشرون عاماً يتغير اثناءها كل شيء ونحن على شاطىء النهر حيث طائفة من الرعاة يسمعون لعازف منهم على الأرغول واذا شيخ ضرير مقبل يقوده شيخ مثله تقدمت به السن ولكنه مبصر فأما الشيخ الضرير الهرم فهو ابو تلك الفتاة وقد كنا نراه في اول القصة رجلاً قوياً جلداً شديد النشاط فيه كثير من مرح ودعابة وان كان قد مر بمحنة أذاقته مرارة الحزن اللاذع المضني حين فقد زوجه . وهو الآن محطم منهار تعاونت عليه الأحداث والسنون وألح عليه الضر والأسى وأما الشيخ المبصر الذي يقوده فهو احد خادميه اللذين كنا نراهما اول القصة مرحين فرحين يملآن الدار من حولها مرحاً وفرحاً وفكاهة . والشيخ الضرير يقول لخادمه أظننا قد بلغنا الموضع ، يريد الموضع الذي ألقت منه ابنته نفسها في النهر قد دله قلبه الممزق على هذا المكان من الشاطىء . وما اسرع ما نعلم ان ابنته تلك قد منحت الحياة منذ عشرين سنة طفلاً تركته لخادمتها ام السعد ثم ألقت نفسها في النهر متعجلة لقاء الموت حزناً وندماً وبغضاً لهذه الحياة التي امتحنت فيها بلقاء الشيطان .

ونحن لا نعرف لابنها اسماً ولكن الكاتب يسميه ابن الشيطان . وقد شب ابن الشيطان هذا حتى بلغ العشرين والغريب انه لم يرث عن ابيه شيئاً وانما ورث عن امه كل شيء فهو مثلها نقي اشد النقاء مؤثر للخير ناشر للاحسان من حوله قد منح من رقة القلب ودقه الشعور وصفاء العقل وكمال الخلق ما لا عهد للشيطان بمثله كأنما هو ملاك كأمه قد هبط الى هذه القرية ليملأها براً وحباً واحساناً .

والناس يألفونه كما كانوا يألفون أمه من قبل ولكنهم لا يعرفون له ابا ولا اماً لأن مولده قد ظل سراً مكتوماً لم يتجاوز جده وأمه . وهو اذا اصبح غدا على القرية فواسى المحزون وانجد المكروب وأعان الناس على نوائب الدهر وجده حريص على ان يراه وعلى ان يتحدث اليه ويكاشفه بسره ويظهره من امره ومن امر أمه على كل شيء ولكن الشياطين من ناحية اخرى ضائقون بهذا الفتى الذي سيطر بحبه على هذه القرية . فكف عنها شرهم وملأها براً وحناناً ومعروفاً وهم يأتمرون به ويكيدون له ويريدون ان يخلصوا منـــه كما يريد الشياطين ان يخلصوا دائماً من الاخيار الابرار ولكنهم لا يقدرون عليه لأن كبيرهم يردهم عنه ويصد عنه بأسهم وهم على ذلك يجدون في المكر والحيلة ولا يتحرجون من ان يخالفوا عن امر كبيرهم في شيء من الاستخفاء عنه ان امكن الاستخفاء عن كبير الشياطين ، وهم يغرون به امرأة فاتنة لعوباً ممعنة في الفتنة واللعب قد

جربت اغراء الشباب والكهول واغواءهم وقد اقبلت هذه المرأة على الفتى من المدينة تريد ان تصيده وتغويه كما اغوت امثاله . ولكنها لا تكاد تراه وتعرف طرفاً من امره حتى يمسها طائف من النزوع الى التوبة والتكفير عن سيئاتها التي لا تحصى وهي مستيئسة من الرحمة ولكن الفتى يرد اليها الأمل واذا هي تخرج من الدنيا التي عرفتها وتريد ان تبرأ من آثامها فتلقي عنها كل وسائل الاغراء لا تبتغي الا ان تتبع هذا الفتى الخير وتعاونه على بعض ما يبذل من الجهد . ويشتد بذلك ضيق الشياطين فيخصلون الى كبيرهم نجياً ويجرؤ بعضهم بعد تردد شديد على ان يباديه بالشكوى من احسان هذا الفتى وصدهم عن هؤلاء الناس من اهل القرية وعجزهم عن ان يبلغوا منه بعض ما يريدون لأنه يشمله بحمايته ويخالف عن طبيعة الشياطين وقوانينهم ، فيحمي الخير ويخلي بينه وبين نفوس الناس . وكبيرهم يفاوضهم ويستجيب لهم آخر الأمر لأنه حاول من قبل ان يعرف هذا الفتى ويتقرب اليه . فلم يجد منه الا الاعراض الذي لقيه من أمه لا لأن الفتى اظهر له هذا الاعراض ، بل لأن قوة خفية ردته عن هذا الفتى رداً . وقد صرف ابليس شياطينه واستبقى منهم واحداً فوض اليه التخلص من هذا الفتى بعد جهد اي جهد . وما اسرع ما يمضي هذا الشيطان الى غايته يتخذ الحقد وسيلة اليها يلم برجل بائس حاقد على الناس جميعاً وعلى هذا الفتى الذي يحسن اليه كلما رآه

فيغريه بالذهب يدفع اليه طائفة حسنة منه ويمنيه بمثلها ان قتل هذا الفتى . والرجل خائف متردد ولكن الشيطان يلح في الاغراء ويهون عليه الامر ويؤمنه من عواقبه . وهذا هو البائس يمضي امامه والشيطان يتبعه حتى اذا بلغ ذلك المكان الذي يخلو فيه الفتى على شاطىء النهر وجده جالساً في ظل شجرة كبيرة ينتظر بعض القادمين عليه ، او قل ينتظر ان يقدم عليه القضاء فيلحقه بأمه . وهـذا البائس يستدبر الفتى ويطعنه في ظهره فيصرعه ويمضي لوجهه ويقدم جده الشيخ فلا يرى حفيده حياً وانما قد فارق الحياة دون ان يعرف من سر امه شيئاً .

ولا يكاد الشيخ وقائده يفرغان لحزنهما حتى تقدم تلك الحسناء التي تابت وآثرت سر الفتى على نعيم الدنيا ولهوها ، وهم يتناجون ولكن اهل القرية قد تسامعوا بالنبأ فأخذوا يهرعون من كل مكان ليشهدوا مصرع ابنهم واخيهم ويأمر الشيخ بأن يحمل القتيل ليعاد به الى الدار ، ثم يظهر كبير الشياطين باكياً ممعناً في البكاء ويظهر الشيطان الذي اغري بقتل الفتى ، فاذا رأى كبير الشياطين منتحباً لهذه عجب اي عجب وهو يسأل رئيسه : أتبكي ؟!. أهذه حقـاً دموع ؟!.. أتلك دموع ابليس .

فيجيبه ابليس : هذه اول دموع لابليس ... عرفها حينما عرف الحب .. ولكنه لن يعرف الحب بعد الآن .. ولن يرى الناس لابليس دموعاً بعد اليوم .

وكذلك تنتهي هذه القصة الممتعة التي لم ألخص لك منها ايسرها ولم احاول ان اعرض عليك بعض ما فيها من هذا الحوار الفلسفي القيم لأني آثرت ان تخلو اليه ساعة من نهار او ساعة من ليل كما خلوت انا الى القصة فلم انصرف عنها حتى اتممتها .

والقصة رائعة اللفظ قد كتبت في لغة عربية رائقة لولا هنات تعترضك هنا وهناك ولكنها قليلة الخطر وان كنت احب للكاتب ان يبرأ من امثالها . وأنا بعد ذلك اهنىء الكاتب باتقانه وامتاعه وما اشك في ان قراءه سيشاركونني في هذه التهنئة وفي تهنئته بشيء آخر وهو ان اعباء الوزارة لم تحل بينه وبين هذه اللحظات الخصبة التي يسعد فيهـا الانسان بالخلوة بين حين وحين الى القلم والقرطاس .

# كنز جديد

هو جديد لأننا كنا نقرأ عنه في بعض الكتب ولا نعرف من ذخائره شيئاً .

وقد اتيح له ان يظهر في هذه الأيام ، واصبح من اليسير ان نقرأه او نقرأ فيه ونجد في قراءتـــه قلت او كثرت طالت او قصرت متاعاً اي متاع .

وهو قديم لأنه كتب في القرن الخامس للهجرة وفي القرن الحادي عشر للمسيح وهو من اجل ذلك كنز من اقدم الكنوز التي تركها لنا القدماء من علماء المسلمين .

والفضل في اظهارنا عليه يرجع الى استاذين كريمين من اساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

أحدهما مصري وهو الاستاذ يحيي الخشاب .

والآخر ايراني وهو الاستاذ صادق نشأت .

والكتاب قد كتب في اللغة الفارسية ففضل الاستاذين مضاعف ، فهما قد عرفاه للعالم العربي من جهة وترجماه الى اللغة العربية من جهة اخرى . ولأمر ما تذكر الترجمة في هذه الأيام فلا يفهم منها المحدثون الا النقل عن الغرب الاوربي والامريكي وقلما يخطر لغير المتخصصين ان في الآداب العالمية قديمها وحديثها آداباً اخرى لها خطرهـا العظيم وربما احتجنا اليها لنتم بها ثقافتنا العليا .

وفي اللغات الاسلامية غير العربية كتب قديمة وحديثة لها قيمتها ومن الحق علينا لأنفسنا ان نعرفها ما وجدنا الى ذلك سبيلاً . فللغرب الاوروبي والامريكي خطره الذي لا معنى للنزاع فيه والنقل عن لغاته المختلفة ضرورة ملجئة من ضرورات الحياة الحديثة، ولكن للشرق الاسلامي وغير الاسلامي خطره العظيم ايضاً ، والنقل عنه واجب لتـتم الثقافة ويحسن العلم بأحوال الأمم الشرقية على اختلافها وما ينبغي لأحد العالمين ان يشغلنا عن احدهما الآخر .

وقد كان قدماء المسلمين فيما يظهر أنفذ منا بصيرة وأحسن تقديراً للأشياء .

فهم حين اخذوا بأسباب الحضارة لم تبهرهم حضارة الغرب الاوروبي ولم تشغلهـم عن الشرق القريب منهم والبعيد عنهم فترجموا عن اليونان علومهم وفلسفتهم كما حاول اهل المغرب الاسلامي ان يترجمـوا بعض التراث

الذي تركه الرومان في لغتهم اللاتينية وترجموا مع ذلك عن الفرس والهند واجتهدوا في ان يعرفوا من أمور الصين ما أتيح لهم على عسر المواصلات في تلك الأيام بين الشرق والاقصى ومواطن الترجمة في العراق والشام بل قد حاولوا ان يترجموا عن اللغات السامية القديمة .

وكذلك ينبغي للذين يلتمسون العلم والثقافة ان يطلبوهما حيث يكونان في اقصى الشرق او في اقصى الغرب او فيما بين ذلك من الاقطار .

والاوربيون سبقونا في هذا العصر الحديث الى العلم بشؤون الفرس والهند والشرق الاقصى .

ولم نحاول نحن شيئاً من ذلك الا بعد ان انشئت جامعة القاهرة وكلية الآداب فيها خاصة ودرست فيها بعض لغات الشرق والغرب واشتدت العناية باللغتين الفارسية والتركية اول الامر ، ثم تجاوزتهما الى غيرهما من اللغات الاسلامية وان لم تصل بعد الى العناية بلغات الشرق الاقصى .

وبفضل هذه العناية بكلية الآداب اخذنا نعرف كثيراً من شؤون الامم الاسلامية غير العربية .

فترجم الدكتور عبد الوهاب عزام اشياء كثيرة قديمة وحديثة للفرس والهند وهو سابق هذا الجيل من علمائنا الذين اشتدت عنايتهم باللغات الشرقية .

وترجم تلاميذه اشياء كثيرة من الادب الفارسي لها قيمتها الخطيرة والحديث عنها يطول الآن .

وهذا الكتاب الذي اريد ان اتحدث عنه اليوم قد ألف في اللغة الفارسية منذ اكثر من تسعة قرون والذي نقل الينا منه على ضخامته ليس الا جزءاً ضئيلاً من كتاب كان يأتلف من ثلاثين جزءاً لم يبق منه الا جزء واحد هو الذي نقله الى اللغة العربية الاستاذ يحي الخشاب وزميله الاستاذ صادق نشأت بفضل ادارة الثقافة في وزارة التربية والتعليم .

وهذا الجزء الذي بقي لنا ونقل في هذه الايام الى لغتنا جزء ضخم جداً يروعك بمجرد النظر اليه وحسبك انه يقع في تسع وخمسين وسبعمائة صفحة من القطع الكبير . وذلك غير المقدمة الممتعة التي كتبها المترجمان والفهارس الدقيقة المختلفة التي ألحقاها بهذا الكتاب .

واعترف بأني ترددت غير طويل قبل ان آخذ في الحديث عن هذا الكتاب الى قراء «الجمهورية» لأني اعلم من امر الناس في هذه الايام ما كان جديراً ان يغريني بايثار الاستمتاع بهذا الكتاب في صمت فجيلنا القارىء الآن قليل الاقبال على القراءة .

وهو اذا اقبل عليها فانما يتخير منها اليسير القريب . وكلما قصر الكتاب كان ذلك ادعى الى قراءته في هذه الايام . فاذا توسط في الطول كان الاقبال عليه مستكرهاً والضيق به شديداً . فأما اذا أسرف في الطول فلا نصيب له من قرائنا المحدثين الا الاعراض عنه والزهد فيه وتركه

لهذه القلة القليلة من اولئك الذين يقفون حياتهم وجهودهم على قراءة الكتب الطوال .

وقراؤنا المحدثون لا يؤثرون قراءة الكتب الصغار القصار فحسب ولكنهم يؤثرون من هذه الكتب نفسها ما كان مسلياً وملهياً كأنهم يرون حياتهم سجناً يريدون ان يتخففوا من اثقاله بهذه القراءة التي تسليهم عن آلامهم واحزانهم وتعينهم على ان يقطعوا الوقت الذي قضي عليهم ان ينفقوه في السجن وان كانوا يضيعون حياتهم نفسها بمثل هذه القراءات التي لا تغني عنهم شيئاً ، وانا مع ذلك قد أقدمت على الحديث عن هذا الكتاب لأمرين : أحدهما الأمل في ان يكون بين قرائنا من يمنحهم الله شيئاً من الحزم والعزم والصبر والاحتمال والاقبال على ما كان قدماؤنا يرونه خير ما يتاح لهم من المتعة القيمة في الحياة . والثاني هو ان يعلم الذين يظلمون الجامعة ويسخرون منها ويظنون بها وبعملائها الظنون ان هذه الجامعة لم تنشأ في مصر عبثاً ولم تضع ما انفق عليها من الاموال وما بذل في انشائها وتنميتها من الجهود وانما اخرجت لمصر اجيالاً من العلماء وقفوا انفسهم على العلم الخالص وانتجوا فيه أقوم النتائج وأبقاها ولم يمنعهم ذلك من المشاركة في النهوض بالأعباء العامة على أحسن وجه وأكمله حين يطلب اليهم النهوض بها . فالجامعة في حياة مصر الحديثة بل في حياة الشرق العربي الحديث نعمة يجب ان نغتبط بها وان نستزيد منها

وألا نضن عليها بجهد او مال .

والكتاب الذي اتحدث عنه مع هذا كله بعيد كل البعد عن ان يكون مملاً او ثقيلاً فمع انه كتاب في التاريخ وفي تاريخ ملك بعينه من ملوك المسلمين في الشرق وهو مسعود بن محمود الغزنوي صاحب البلاء الرائع العظيم في تحقيق الصلة الدقيقة المنظمة بين الهند وبين العالم الاسلامي في وقت كان علم المسلمين بشئون الهند فيه محدوداً او كالمحدود . وكان المؤلف قد قصد في الاجزاء الثلاثين من كتابه ان يؤرخ للأسرة الغزنوية كلها ولكن كتابه ذهبت به الايام ولم تترك لنا منه الا هذا الجزء الذي يتحدث عن تاريخ مسعود وحده .

وكان مؤلف الكتاب يعمل في ديوان الرسائل منذ شبابه الاول الى ان بلغ الشيخوخة على احداث عرضت له اثناء عمله . فكان عالماً أدق العلم بحقائق السياسة في هذه الدولة وحقائق الصلات المختلفة بينها وبين الدول الاسلامية وغير الاسلامية ايضاً .

وهو يحدثنا في هذا الجزء بألوان من سياسة الحكم ومن العلاقات بين الملوك في تلك الايام من جهة وبينهم وبين الخليفة العباسي المستقر في بغداد من جهة اخرى . ثم بينهم وبين بلاد لم يكن الاسلام قد ساد فيها بعد من بلاد الهند والترك ومن اليهم . وهو لا يحدثنا عن هذا كله كما تعود المورخون القدماء حديثاً جافاً غليظاً وانما

يحدثنا حديثاً سهلاً قريباً لا مشقة في قراءته ولا يجد القارىء فيها هذا العناء الذي يجده عادة عندما تساق اليه احداث التاريخ في غير تأمل ولا تدبر ولا استخراج لما فيها من عبر وعظات ولا تعمق للدوافع الخفية التي دفعت اليها . ذلك ان مؤلفنا يناجي بهذا الكتاب نفسه اكثر مما يناجي غيره من الناس فهو قد عمل في القصر كاتباً في ديوان الرسائل ايام محمود وابنه مسعود ورأى حقائق السياسة من كثب واستقصى اسرارها وحكم عليها احياناً وحكم لها احياناً اخرى فهو فقيه بما يكتب وهو بكتاب المذكرات اشبه منه بالمؤرخين الذين عرفناهم من علماء المسلمين .

وهو من اجل ذلك حاضر معك حين تقرأ لا يخيل اليك انه يقص عليك الانباء ويعرض عليك الاحداث وانما يخيل اليك انك ترى عقله وقلبه وهما يستعرضان الانباء والاحداث، فيرضيان حيناً ويسخطان حيناً آخر ويتأثران دائماً بما فيها من عبرة وموعظة ويودان لو رأى الناس كلهم ما يريان واستخلصوا من العبرة والعظات مثل ما يستخلصان. وترى عقله وقلبه كذلك حين تعرض لهما الاحداث يستحضران ما يشبهها من احداث مضت وقد يستحضران بعض الاقاصيص التي تثيرها هذه الاحداث لما تدعو اليه من تأمل واعتبار . وربما خيل اليك المؤلف انه يقص عليك هذه الاقاصيص ليتعظ بها الجاهلون ويتنبه بها الغافلون .

والكتاب بعد ذلك رائع في تصوير القصر الملكي الذي يزدحم فيه المتنافسون في الحظوة لدى الملك ويتفوق فيه البارعون في الكيد الماهرون في المكر والدس والخداع ، وفي تصوير مسعود نفسه كما كان ملكاً ظالماً اثراً لا يحب شيئاً كما يحب نفسه ولا يهتم بشيء كما يهتم بالمال يجبى له بالحق حيناً وبالباطل والجور غالباً وهو لا يكره الغدر ولا يتحرج من سفك الدماء على ابشع صور الظلم في اقبح مظاهر الجور والاستهانة بما للناس من حقوق وحرمات وهو بعد هذا كله مالك لأمره محقق لكل ما يفعل قد استجاب للمفسدين من وزرائه وحاشيته لا عن جهل او غفلة بل عن توافق بين طبعه وطباع المفسدين من الوزراء ورجال القصر وهو على رغم ذلك شجاع لا يهاب المكاره ولا يتردد في تجشم الاخطار وهو ينفق ايام ملكه محارباً للعدو او ماكراً به كائداً له دون ان يمنعه ذلك من المكر بالرعية او يشغله عن الكيد لها ومن وزرائه وزراؤه المفسدون يهونون عليه من ذلك ما يعسر ويفتحون له ابواباً من الفساد لا يتردد في ولوجها ثم هو على حبه للمال لا يتردد في الانفاق حين تدعو اليه مصلحة او حين يرضى عن شاعر او عالم او رجل من رجال القصر .

والمؤلف يتحدث الى نفسه والينا بهذا كله في يسر واسماح ويظهر مع ذلك اجلالاً للملك واكباراً لمكانه مع

انكاره لما فيه من خصال السوء ولما في اعماله واقواله من خطأ .

وليس من شك في ان ما ضاع من اجزاء كتابه لم يكن اقل قيمة او أهون شأناً من هذا الجزء الذي بقي لنا والذي نقلـه الاستاذ يحيى الخشاب وزميله الى اللغـة العربية فالخسارة بفقد هذه الأجزاء الكثيرة عظيمة ليس الى تقويمها من سبيـل وقد ترجم الكتاب ترجمـة يسيرة تحبب قراءته وتغري بالانتهاء منه حين تبدأه لا تجد فيها شيئاً من مشقة قد كتبت باللغة التي يفهمها الناس في هذه الايام دون اخلال بأصول الفصاحة لولا هنات هنا وهناك يرجع بعضها الى الخطأ المطبعي وعسى ان يرجع بعضها الآخر الى ان الاستاذين الناقلين قد تأثرا بما ألف الناس من ألوان التعبيـر الذي لا يخلو من بعض الاهمـال وان كنت انا استكثر هذا على الجامعيين وأحب لهم ألا ينقادوا لمـا ألف الناس وان يكونوا حراصاً على اصلاح ما قد يكون في هذا المألوف من تقصير كله بعيد كل البعد عن ان يكون عملاً . انه معلم دائماً حين يعمل وحين يقول والاصل في المعلم ان يتوخى الدقة ويتخير ألفاظه ما وجد الى ذلك سبيلاً .

وشيء آخر ألاحظه وأتمنى ان يتداركه المترجمان حين يعيدان طبع هذا الكتاب فهناك انباء تتصل بالقصور العربية القديمة نقلها المترجمان باللغة التي يألفها الناس .

وكنت أوثر ان يرجعا الى نصوصها الاولى كما جاءت في كتب التاريخ العربي .

ومن امثال ذلك ما جاء من التمثيل بقصة الرشيد حين ولي على بعض بلاد فارس بعض ولاته مكان الفضل بن يحيى البرمكي . فأرسل اليه الوالي الجديد هدايا نفيسة لم يتلق مثلها من الفضل حين كان والياً على ذلك الاقليم. فلما عرضت عليه هذه الهدايا راعته وسأل يحيى البرمكي : اين كان هذا كله ايام كان الفضل والياً ؟ فأجابه يحيى : عند اهل الاقليم .

اراد الرشيد ان يلمح الى ان الفضل كان يؤثر نفسه بهذه النفائس ، واراد يحيى ان يلمح الى ان ابنه كان عدلاً مؤثراً لمصلحة الرعية وان الوالي الجديد يرهق الرعية ويستصفي اموالها ليتقرب بها الى امير المؤمنين . ولو رويت هذه القصة بنصها العربي القديم ، لكان ذلك أدق وأكثر امتاعاً . وكذلك قصة الفضل بن الربيع حين حنث في عهده للرشيد ولم ينفذ وصيته وحين رضي المأمون عنه وعن امثاله من الذين نظروا الى مصالحهم ولم يخلصوا في النصح للخلفاء بمقدار ما اخلصوا في ايثار انفسهم بالخير فهذا كله يروى في الكتب العربية القديمة في لفظ رائق شائق وكان الرجوع اليه أدق وأدنى الى امتاع القراء ولكن هذه الهنات لا تكاد تذكر الى جانب الجهد الهائل الرائع الذي

بذله الاستاذان والمشقة الشاقة التي احتملاها في استخراج هذا الكنز النفيس من كنوز اللغـــة الفارسية واهدائه الى اللغة العربية وقرائها . فلهما التهنئة صادقة والشكر خالصاً .

# السد

أريد اليوم ان أنتقل بقراء هذا الحديث من مصر ومن أدبائها وكتابها الى وطن عربي آخر لا نكاد نعرف عن حياته الأدبية شيئاً ذا بال لان ظروف السياسة حالت بيننا وبين الاتصال الدقيق المنظم به وبأدبه آماداً طوالاً وهو تونس . فقد جثم الاحتلال الفرنسي على هذا الوطن العربي الكريم وتعمد ان يقطع الصلة بينه وبين اشقائه من الأوطان العربية الشرقية وأتيح له نجح كثير فيما اراد . فلم تكن كتب التونسيين تصل الينا من طريق مباشرة الا نادراً ولم تكن كتبنا وآثارنا الأدبية تبلغ تونس الا مهربة الى أهلها من طريق فرنسا نفسها وربما جاء تونسي كريم الى مصر يحمل اليها بعض الآثار التونسية وعاد الى وطنه ببعض الآثار المصرية ، ومع ذلك فقد حاولت وزارة المعارف المصرية في يوم من الايام ان تحقق الصلة بين الأدب العربي الشرقي والأدب العربي في تونس فنشرت للأستاذ الجليل حسن

حسني عبد الوهاب عضو مجمع اللغة العربية في مصر كتاباً صغيراً قيماً عن الأدب التونسي المعاصر وزعته على تلاميذ المدارس الثانوية منذ اكثر من عشر سنين ثم انقطع هذا الجهد ولم يتجدد . ووصل الى مصر شيء من الشعر التونسي المعاصر فتلقاه المصريون لقاء تجاوز الرضا الى الاعجاب ولكن الامر وقف او كاد يقف عند هذا الحد وقد انجلت عن تونس او كادت تنجلي غمرة الاستعمار الفرنسي البغيض وجعلت الصلة تستأنف بيننا وبين اخواننا التونسيين في شيء من النظام نرجو ان يطرد ويزداد .

والأثر التونسي الذي أريد ان أتحدث عنه اليوم قصة تمثيلية رائعة لكنها غريبة كل الغرابة كتبها صاحبها الأديب الاستاذ محمود المسعدي لتقرأ لا لتمثل، ولتقرأ قراءة فيها كثير من التفكير والتدبر والاحتياج الى المعاودة والتكرار وحسبك اني قرأتها مرتين ثم احتجت الى ان اعيد النظر فيها قبل ان املي هذا الحديث وهي بأدب الجد العسير أشبه منها بأي شيء آخر ، وضع فيها الكاتب قلبه كله وعقله كله وبراعته الفنية واتقانه الممتاز للغة العربية ذات الأسلوب الساحر النضر والألفاظ المتخيرة المنتقاة . وقصد بها الى اثارة التفكير الفلسفي لا الى التسلية والتلهية ولا الى الامتاع السهل والاثارة اليسيرة بل الى تعمق الحياة والفقه بها والنفوذ الى ما وراءها وقد تستطيع ان تقول انها قصة فلسفية كأحق وأدق ما تكون الفلسفة. وتستطيع كذلك ان

تقول انها قصة شعرية كأروع وأبرع ما يكون الشعر ولا غرابة في ذلك فما أكثر ما يلتقي الشعر والفلسفة، والمثقفون جميعاً يعرفون ان آثار أفلاطون لم تخلص للفلسفة وحدها ولم تخلص للشعر وحده وانما التقطوا فيها تفكير العقل وتدبره وتوثب الخيال وتساميه . فارتفعت بذلك الى مرتبة من العلو قل ان يظهر بها شعر شاعر او فلسفة فيلسوف. ولا بد لقارىء هذه القصة من ان يلاحظ شيئين لا بد من استحضارهما لفهمها وتعمق أسرارها . أحدهما ان الكاتب تونسي عاش في وطن قد ألح عليه الاستعمار الأجنبي فحرم أهله الحرية وحال بينهم وبين النشاط الخصب واستأثر من دون أهله بالخير كله ولم يترك لهم الا ما يقيم الحياة ، وحال بينهم كذلك وبين النشاط العقلي الخصب لولا فضل من قوة أصيلة فيهم عصمتهم من الاستكانة والاذعان . وتطاول به الزمن وتتابعت معه الخطوب حتى فرض على اهل الوطن شيئاً الا يكن يأساً فهو من اليأس غير بعيد . والثاني ان هذا الأديب التونسي قد تثقف بالأدب العربي كأحسن ما تكون الثقافة ثم أتم دراسته في فرنسا فأتقن العلم بالأدب الفرنسي كل الاتقان وتأثر فيها بكاتب مفلسف معروف هو البير كامو . والبير كامو هذا نشأ في شمال أفريقيا في الجزائر وغلبت عليه الفرنسية كما تغلب على اكثر الشباب الجزائريين فأصبح كاتباً ممتازاً من الكتاب الفرنسيين . وله مذهب فلسفي معروف نشأ عن الوجودية

وهو يقوم على ان من العبث ان تحاول فهم الحياة الانسانية : فليس لهذه الحياة غاية معروفة يمكن الوصول اليها وحكمة قريبة يمكن استكشافها، وانما هي عبث من العبث. وليس للانسان الا ان يكتفي بنفسه ولا يبحث عن حكمة وجوده ولا عما وراء حياته لانه لن يظفر بشيء. وهو يشبه حياة الانسان او الوجود كله بهذه الاسطورة اليونانية القديمة التي تروي ان بطل من ابطال اليونان قضى عليه بعد موته ان ينفق الخلود دافعاً صخرة من الحضيض الى قمة الجبل. وهو يدفعها امامه حتى يبلغ بها القمة ولكنها لا تكاد تبلغ القمة حتى تنحط الى الحضيض فيضطر الى ان يدفعها من جديد . وهو كذلك يدفع الصخرة الى القمة وتنحط به الصخرة الى الحضيض الى آخر الأبد ان كان للأبد آخر. وليس لهذا القضاء الذي قضى على هذا البطل فقه ولا حكمة فخلوده عبث وجهوده عبث والوجود كله يشبه هذا العبث الذي فرض على هذا البطل اليوناني القديم.

وتأثر كاتبنا بهذا الأديب الفرنسي كما تأثر بالأدب العربي وبالوطن التونسي والحياة التي كان يحياها قبل الاستقلال. وكانت هذه القصة صورة رائعة لهذه الألوان من التأثر كلها. فالكاتب يائس او كاليائس يدفعه الأمل والخيال وطبيعته الانسانية الى ان ينشيء ويبدع ويبتكر فينفق الجهد ويحتمل العناء ويشقى بألوان من المشقة والألم حتى اذا استيقن انه قد بلغ الغاية وانتهى الى النجح ذهب

كل ما أنشأ وكل ما ابدع وكل ما قدر لانشائه وابداعه من نتائج كأنه لم يكن وكأنه لم يبذل جهداً ولم يحتمل عناء ولم يقهر المصاعب او يذلل العقاب. او قل ان شئت الدقة انه يتصور الانسان كذلك في كل ما يقدر وفي كل ما يدبر وفي كل ما ينشيء او يبتكر. والانسان على ذلك مغرور بطبعه فجهوده الضائعة وعناؤه الذي لا يغني عنه شيئاً والمصاعب التي تذعن له والعقاب التي تذل له ثم تثور به ثم تعود سيرتها الاولى ، كأنه لم يقهرها ولم يذللها ولم يشق الأعوام الطوال بما بذل من جهد واحتمل من عناء في سبيل قهرها وتذليلها . كل ذلك لا يفل من عزمه ولا يجعل لليأس الى قلبه او عقله سبيلاً .

وقد استأثر الأمل والخيال بأمره كله فهما يدفعانه إلى الجد في غير طائل والى الكد والعناء في غير احتمال ويخدعانه خداعاً متصلاً ويلقيان في روعه انه ان يخفق اليوم فسيبلغ النجح غداً. ولا عليه في ان يخفق مرة في اثر مرة فالنجح مكتوب له على كل حال بل لا عليه ان يكون النجح مكتوباً له او محرماً عليه . فهو مدفوع الى الأمل ومدفوع الى العمل لا يصرفهما عنه الا الموت . والموت يصرف جيلاً عن الأمل ولكن الجيل الذي يأتي على اثر هذا الجيل لا يتعظ ولا يعتبر بما لقي الجيل الذي سبقه وانما يسلك طريقه ويمضي على أثره آملاً عاملاً محاولاً ما لا مطمع له فيه ولا سبيل اليه كأن أبا تمام قد صوره أصدق تصوير في

بيتيه المشهورين :

وركب كأمثـال الأسنة عرسوا
على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهـم ان تتم صدوره
وليس عليهم ان تتم عواقبـه

وواضح جداً ان قصة كاتبنا هذه لا يمكن الا ان تكون رمزية فهو نفسه لم يخفق بعد جد وكد ولم يفكر فيما كتب له هو من نجح او اخفاق . واكبر الظن انه مؤمن في هذه الايام بالأمل والعمل سالك طريقه الى النجح والتوفيق في توطين التعليم الثانوي في تونس ولكنه ينبئنا بأنه كتب هذه القصة ايام عزلة وانفراد ثم اختبرها بعد ان عاشر الناس وعمل معهم فلم تنكره ولم ينكرها . والحمد لله على انها لم تنكره ولم ينكرها فقد اتاح ذلك نشرها وامتاعنا بقراءتها .

وما دام الكاتب قد اتخذ التعبير الرمزي له سبيلاً وما دام لا يريد ان يكتب فلسفة خالصة وانما يريد ان يكتب فلسفة ادبية او ينشيء ادباً فلسفياً فليكن التعبير الشعري هو سبيله الى تصوير فكرته هذه بالرمز والايماء . ولقد وفق الى ذلك توفيقاً ما اعلم انه اتيح لأديب عربـي معاصر من الرمزيين لأن ادباءنا الرمزيين في الاوطان العربية على اختلافها لم يبلغوا من تطويع اللغة العربية لفنهم ما يتيح لهم الاتقان والابداع فهم ما زالوا في طور المحاولة والتجربة .

اما كاتبنا فقد أذعنت له لغته اذعاناً واستجابت له في غير مقاومة ولا عناد وأخشى ان تكون قد استجابت له اكثر مما ينبغي فأطمعته في نفسها وأغرته احياناً بأن يشق عليها ويرهقها من امرها عسراً . وكاتبنا يبدأ بانشاء بيئة شعرية خالصة لا تكاد تقبل عليها حتى ترى نفسك في عالم من الخيال غريب لا عهد لنا بمثله في الأدب العربي الا احياناً قليلة حين يرمز الفلاسفة الى بعض ما يريدون تصويره من ألوان الحكمة فيتصورون انساناً فرداً قد وجد وحيداً في جزيرة خالية فاستكشف وحده العلم والحكمة كما فعل ابن سينا في الشرق وابن طفيل في الغرب او حين يرمزون الى ما يكون بين الانسان والحيوان من استئناس وتذليل ومن فورة وعصيان كما فعل اخوان الصفاء في بعض رسائلهم ، ولكن كاتبنا على ذلك خصب الخيال نافذ العقل غني اللغة يشيع الحياة والعقل والمنطق في الجبل وصخوره وحيوانه المستأنس والمستوحش ويشيع الحياة كذلك في الجو بما يبتكره من هذه الهواتف التي تتحدث بين حين وحين الى الانسان والحيوان والجبال بما يريد الكاتب ان تتحدث به الى هؤلاء جميعاً . واشخاص القصة عجب من العجب فهناك انسان ملكه الأمل وحب العمل والامتناع على اليأس والثورة بالواقع من الحياة وهو غيلان وهناك امرأته ميمونة التي تؤمن بالواقع اشد الايمان وتريد ان تكتفي به وترفض الأمل والخيال كل الرفض وتحاول ان تكف زوجها عن

الاستجابة لها وتوئسه من غايتها . وهناك بغلها الذكي
الناطق ان اتيح للبغال حظ من نطق او ذكاء . وهناك
الصخور التي تعرض لها الحياة ساعة من نهار او ليل او
ساعة بين النهار والليل . فتتحدث وتصلي وتسبح باسم تلك
الآلهة التي ابتكرها كاتبنا ابتكاراً وهي صهباء . وأحسبه
رمز بها الى الارض التي تحب الجدب والظمأ والفحول
والاقفار . وصاحبنا غيلان يريدها على ان تشرب الماء
وترتوي به وتنشق عما يمكن ان تثمر الثمرات لتغير حياة
الذين يعيشون عليها وتخرجهم من الضيق الى السعة ومن
البؤس الى النعيم ولكن هذه الآلهة عنيدة ابية عصبية لا تسمع
ولا تستجيب بل هي تبطش بمن يحاول ان يشكرها على
ما لا تحب . ولهـذه الآلهة التي تكثر السكون والركود
والجمود نبيها ذو الاصوات الكثيرة المختلفة الذي لا يرى
ولكنه يتحدث الى الناس والى الاشياء والحيوان جميعاً
بأصواته المختلفة كلها في وقت واحد . مغرياً بالاذعان
للآلهة وبعبادتها زارياً على الانسان غروره الذي يخيل اليه
القدرة على عصيان الآلهة واستكراهها على ان تطيعه وتذعن
لما يريد ان ينشيء عليها من ضروب الاصلاح والتعمير .
وغيلان قد استكشف ينبوعاً غزيراً وهو يريد ان ينشيء
سداً يمنع ماء هذا الينبوع من التفرق والانتشار ليصلح به
الأرض ويملأها خيراً وثراء . وميمونة توئسه من ذلك
وتريد ان ترده عنه وتزهده فيه . ولكنه لا يحفل بها ولا

يسمع لها وانما يحفل بشخص آخر غريب رقيق فاتن بارع الجمال وهو مياره رمز الخيال الذي يغري دائماً بالمضي الى امام وبالامتناع على اليأس . وغيلان يوفق الى بناء السد وهو عنه راضٍ وبه معجب ولكنه لا يكاد يتم السد حتى يثور به عماله فيدمروا ما بنوا تدميراً ويحاولوا قتل غيلان نفسه ، لولا ان الآلهة صهباء تنجيه منهم . لعله ان يثوب الى رشده ويثوب عن محاولة ما ليس اليه سبيل . وغيلان على ذلك لا يثوب ولا يثوب وانما يستأنف العمل كأنه لم يلق اخفاقاً يعينه على ذلك خياله الذي لا يعرف كلالاً ولا ملالاً . وقد تم السد للمرة الثانية او كاد وغضبت صهباء فبطشت بالسد بطشاً لا معقب عليه . فهذه الطبيعة كلها قد ثارت . فالريح تعصف والرعد يقصف والبرق يخفق والمطر ينهل والجبل يضطرب ثم يزلزل بما عليه ومن عليه وينشق فتخرج من جوفه نار لا تريد ان تبقي على شيء . وهذا غيلان وخياله الحبيب مياره لم يكفا عن عنادهما ولكن العاصفة تحملها الى غير طريق .

وهذه ميمونة وحيدة تنحدر الى السهل وأين هي من السهل يخيل اليها انه قريب ولكنه ينحط عنها ويبعد منها كلما ظنت انها قد كادت تبلغه .

ولست ادري أفهمت القصة ام لم افهمها ولكني اعلم ان هـذا التلخيص الموجز اشد الايجاز مقارب ان لم يكن دقيقاً ! ولا غرابة في ان اشك في اني قد فهمت عن المؤلف

حق الفهم بعد ان قرأت قصته مرتين او ثلاثاً فهذه طبيعة الرمز وهي كذلك طبيعة الشعر لا يقتله الفهم السريع اليسير وانما يحييه هذا الغموض الخصب الذي يضطرك الى ان تقرأه وان تقرأه ويعطيك في كل قراءة شيئاً لم تظفر به في القراءة الاولى . وكم كنت اتمنى ان تكون لغة المؤلف ايسر شيئاً مما هي فهو قد نحتها من صخر كأنه اشتقها من الجبل الذي تجري عليه القصة فأضاف عسر اللفظ الى عسر المعنى وعسر الاسلوب .

والقصة كما قلت شعر كلها ولكنه شعر غير منظوم وربما عرض فيه النظم احياناً ولكنه نظم يبتكره الكاتب ليعرب به عن ذات نفسه لا يعتمد فيه على شيء مما عرف القدماء والمحدثون في شعرهم التقليدي وهو الشعر الفرنسي المطلق ادنى منه الى اي شيء آخر .

وقد قدم لهذه القصة استاذان جليلان من الاساتذة التونسيين احدهما الاستاذ محجوب بن ميلاد استاذ الفلسفة والآخر الاستاذ الشاذلي الفليبي استاذ اللغة والادب . وكلاهما قد فهم القصة وأعجب بها ومسها بشيء من النقد .

فلأشاركهما في الاعجاب بالقصة وفي تهنئة الكاتب والثناء عليه وان لم اثق كل الثقة بأني فهمت القصة في يسر كما فهماها .

# وحي الحرمان

والمحروم هنا امير ذو وزارتين جده ملك عظيم ، وعمه ملك كريم ، وابوه امير ووزير خطير قد أتاح الله له من اسباب السعادة ونعمة البال الكثير الذي نتمنى له منه السعة والمزيد ، وهو الامير عبد الله الفيصل .

وقد حاول ان يبين لنا حقائق الحرمان الذي اضناه وأشقاه وأوحى اليه بديوان من الشعر هو الذي سأحدثك عنه اليوم . ولكنه لم يبن من هذه الحقائق شيئاً ، وما كان له ان يبين منها شيئاً ، شأنه في ذلك شأن شعراء كثيرين عرفهم وطنه نجد ومستقره الحجاز في عصور قديمة مضت عليها قرون طوال . وليس هو الا واحداً منهم يجب ان يضاف اسمه الى اسمائهم ، وكلهم أحس الحرمان

وشقي به ولم يستطع ان يبين عنه لأنه لم يعرف حقائقه ، وانما اتخذ التصوير الرمزي وسيلة الى الشكوى منه والتبرم به والتمرد عليه احياناً . وقد قلت في غير هذا الموضع ان الشعراء العذريين الذين ظهروا في العصر الاسلامي الاول في نجد والحجاز وملأوا الدنيا بكاء وشكاة ولوعة وحزناً ورددت العصور اصداء حزنهم ، وما زالت ترددها الى الآن . قلت ان هؤلاء العذريين ليسوا الا جماعة المحرومين الذين أحسوا انهم يفقدون شيئاً ويألمون اشد الالم لفقده ولكنهم لم يستطيعوا ان يتبينوا حقيقة الشيء الذي فقدوه، فاتخذوا المرأة رمزاً لما فقدوا واتخذوا الحب رمزاً لما أحسوا من لوعة وحسرة وألم واتخذوا الغزل وسيلة الى الأنين والحنين والشكاة والبكاء :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلي بكل سبيل

كذلك كان يقول الشاعر من هؤلاء الشعراء في القرن الأول للهجرة . يريد ان ينسى حبيبته ويبذل في ذلك ما يستطيع من جهد ولكن ذلك لا يتاح له لأن هذا الشيء الذي أحبه وهام به قد ملك عليه قلبه ولبه وملأ عليه الدنيا من حوله وأخذه من جميع اقطاره . فهو لا ينظر الا رآه ولا يخلو الى نفسه الا فكر فيه . ولا يسمع صوتاً من أصوات الطبيعة الا وجد فيه صدى لصوت هذا الأمل

البعيد عنه جداً القريب منه جداً والذي يسميه ليلى :

وإني وتهيامي بعزة بعدما
تخليت عما بيننـــا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما
تبوأ منها للمقيل استقلت

وكذلك كان يقول كثير وقد خيل الى نفسه او خيلت اليه نفسه انه قد تسلى عن عزة وأن عزة قد تسلت عنه ولكنه كذب نفسه او كذبته نفسه ، فهو لم يتسلَّ عن شيء ولا يستطيع ان يتسلى عن شيء لأنه موكل بالأمل الكاذب يتبعه في كل مكان ولكنه لا يكاد يدنو منه حتى ينأى ذلك الامل الكاذب عنه . كالذي يرى غمـامة يريد ان يستظل بها ساعة من وهج الصحراء الذي أحرقه واضناه ولكنه لا يحس ظلهـــا حتى تمضي عنه وتخلي بينه وبين القيظ المحرق المرهق يذيقه من العذاب ألواناً .

كذلك شاعرنا الامير أتيحت له الدعة والسعة ، وبسط الله له في الامل وأسبغ عليه نعمة حيـــاة رضية كانت جديره ان تهيء له من نعمة البال ورضى النفس واطمئنان القلب ما ينعم به كثير من امثاله ولكنه لم ينشأ في نجد وحده وانما نشأ معه هذا القرين المجهول الجميل الخلاب الذي يتراءى له من قريب حتى يغريه بنفسه ويطمعه في قربه والاستمتاع بعشرته . فاذا حاول ان يظفر بما تمنى

لم يجد الا سراباً ووجد عند السراب حرماناً وعذاباً ، فنفثت نفسه المحزونة بقول جميل :

ومنيتي حتى اذا مـــا ملكتني
بقول يحل العصم سهل الاباطح
تناءيت عني حيث لا لي حيلة
وغادرت ما غادرت بين الجوانح

واقرأ معي هذه الابيات لشاعر قديم من هؤلاء العذريين فستحس فيها هذا الحرمان المشقي المضني ، سترى نفس الشاعر حية أمامك تتبع املها الكـــاذب الخائب في غير طائل ولا جدوى وقد افلت منه بعد أن خيل اليه أنه قد أتيح له ، فهو ينظر اليه مولياً كما ينظر الانسان الى النجم حين يغرب في اعقاب الليل منهزماً امام نور الصبح المشرق، وستعجب من هذا الشعر بصوره ومعانيه وألفـاظه الجزلة الرصينة وشكواه اليائسة الحزينة :

ولم أرَ ليلى بعد موقف ساعة
ببطن منى ترمي جمار المحصب
ويبدي الحصى منها اذا قذفت به
من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر
مع الصبح في اعقاب نجم مغرب

ألا انما غادرت يا أم مـــالك

صدى ايما تذهب به الريح يذهب

واقرأ بعد ذلك هذه المقطوعة لشاعرنا الامير ، فستحس فيها مثل ما أحسست في هذه الابيات القديمة من الانين والحنين واللوعة والشكاة وسيحيط بك جو يشبه الجو الذي أحاط بك في تلك الابيات . جو واد عربـي في الطائف او في مكان قريب منها ، وسترى الشاعر يودع صاحبته بعد أن سعد بلقائها سعادة نقية يملؤها العفاف ، وستراه بعد فراقها شاكياً باكياً تحرق اللوعة قلبه تحريقاً لا يستطيع ان يرجو اللقاء . ولكنه واثق بأنه لن يستطيع نسيان هذه الحبيبة التي لم تكد تتراءى له حتى تنأى عنه . ولكنك ستجد فرقاً عظيماً في الصورة الشعرية عند الشاعرين . فأما ابيات الشاعر القديم فرصينة جزلة واما ابيات الشاعر الحديث فيسيرة سهلة لا تخلو من بعض ما ينبو عن الذوق البدوي القديم ، لأن الشاعر الحديث لم يتأثر بالجو النجدي وحده وانما تأثر بشيء من الجو الحضري الذي يألفه المعاصرون في مصر ولبنان ، فهو يثني الوداع في غير حـــاجة الى تثنية لان الوداع بطبعه لا يكون الا بين واحد وغير واحد وهو يصطنع ألفاظاً وأساليب يحبها المعاصرون الذين لا يحفلون بجزالة اللغة ولا بصفائهـــا ، مع ان الشعر العربـي شديد الحاجة الى الجزالة والصفاء لا يقبل من الاسماح كل ما يمكن

أن يقبله النثر . واقرأ معي هذا الشعر :

هل تذكرين وداعينا مصافحة
اودعت فيها كريم الاصل يمناك
او تذكرين بوادي وج وقفتنا
وقد افاضت علينا الطهر عيناك
وحين غنت على الاغصان شادية
أنشودة الحب في ترديدها الباكي
أنت الحياة لقلب جد مكتئب
وليس يسعده بالوصل إلاّك
ماذا يضيرك لو حققت امنيّتي
فيسعد القلب من شوق لرؤياك
ففيك للقلب أهواء مجمعة
وفي لقائك دنيا الشاعر الشاكي
أقصى أماني لو تبدين باسمة
أستلهم الشعر من باهي محياك
دنياي نار من الهجران محرقة
اذا نأيت وروض حين ألقاك
فان نسيت وداداً كان يجمعنا
على العفاف فقلبي ليس ينساك
والذكريات الى ما عز قربك لي
سلوى فؤاد على الايام يهواك

شاعرنا اذن بدوي النزعة في هذا الحب النقي العفيف القريب البعيد في وقت واحد ولكنه على ذلك مصري اللغة او لبنانيها . فهذان الوداعان وهذه الرؤيا التي تسعده وهذا الضمير المتصل بعد الا واشباه هذه الحنات ليست من لغة البادية في شيء ، وليس في ذلك عجب ، فالشاعر متأثر بشيئين واضحين كل الوضوح في ديوانه كله : احدهما طبعه العربي الخالص الذي يأتيه من نسبه ومن وطنه الذي نشأ فيه وهو نجد والذي يعيش فيه الحجاز . والآخر هذه الحواضر العربية التي يلم بها بين حين وحين والتي ترسل اليه ادبها السهل اليسير في كل وقت . فيقرأه في يسر واسماح لا يتاحان له حين يقرأ شعر أسلافه من القدماء النجديين والحجازيين . وقديماً تنازع العراق والشام في المتنبي لأنه ولد في الكوفة وانشأ اكثر شعره في الشام وتنازعت مصر والشام أبا تمام لانه ولد قريباً من دمشق وألمّ بمصر وسمع من شيوخها. ويخيل الي ان شاعرنا الامير سيكون موضوع نزاع بين الجزيرة العربية التي ولد ونشأ فيها وبين لبنان ومصر لانه ألمّ بهما غير مرة ، وقرأ شعر المعاصرين من شعرائها. وقد ادعاه للبنان بالفعل شاعر لبناني كريم هو الصديق صلاح لبكي رحمه الله في المقدمة التي صدر بها الديوان ولم ينكر الشاعر من هذا شيئاً ، ولكني انا أزعم ان الشاعر مصري اللغة بدوي النزعة كما قلت وأكاد اعتقد انه تأثر باثنين من شعرائنا المعاصرين

خاصة هما علي محمود طه وابراهيم ناجي رحمهما الله .
وتأثير هذين الشاعرين في شعر هذا الديوان اظهر من ان يحتاج الى دليل . ولولا ان هذا الحديث لا يحتمل اطالة ولا تفصيلاً لبسطت القول في ذلك ولوازنت بين كثير من شعر الديوان وشعر الشاعرين المصريين . ولكن هذا العصر لا يحتمل مثل هذا النزاع فليكن شاعرنا نجدياً او حجازياً أو مصرياً او لبنانياً فليس لشيء من هذا كله خطر وحسبه انه شاعر عربي مجيد .

واقرأ معي هذه الابيات :

هل تذكرت الذي كان لنا بالضفتين
يوم كنا والهوى يجتاحنا كالزهرتين
اذا بعثنا من هوانا وجوانا زفرتين
وسكبنا فوق سطح النهر منا دمعتين
لحظة مرت بنا يا حب من قبل الغروب
اذ تولى الشمس قبل الليل اعراض الشحوب
ورأينا الليل في اعطافه النور يذوب
فصمتنا وتناجت بالهوى خرس القلوب
هل تذكرت الذي كان لنا في الكرنك
حين أشهدنا على الحب نجوم الفلك
فكأني لم أمتع بشذى من حسنك
وكأني لم ألج يوماً مغاني عدنك

كنت ابكي يا حبيبتي عند لألاء التلاقي
يوم كنا نقطع الحلم بنجوى واشتياق
خائفاً مستبقـــاً في الوصل ايام الفراق
غاب هل غاب وودي لك بـــاق ؟

أرأيت الى هذا الشعر الجميل الجيد الذي يعترضه احياناً بعض الضعف في القافية ، لقد اوحى به الكرنـــك الى الشاعر كما يقول . وانا مع ذلك لا اجد من الكرنك في هذا الشعر الا لفظه فأما صوره ومعانيه وألفاظـه فقد اوحى بها النيل واوحت بها الشمس التي جعلت اعراض الشحوب تأخذها في الاصيل واوحى به الليل الذي جعل النور يذوب في اعطـــافه واوحى به الحب الذي سعد به الحبيبان ساعة بعد فراق طويل وقبل فراق طويل آخر كانا يحسانه ويشفقان منه . فهما ينعمان ويختلسان الوصـــل ويعيشان في حلم ، وتعقد السعادة لسانيهما حيناً كما يعقده خوف الفراق حيناً آخر فتسكت الافواه وتتناجى القلوب وتشهد نجوم السماء على هذا كله ثم ينقضي هذا كلـــه ولا يبقى منه الا الذكرى التي يحتفظ بها الشاعر ويتمنى لو لم ينسها حبيبه . فأما آثار الكرنك وبيئته والذين يعيشون فيه ويلمون به فلم يحس الحبيبان لهمـا حساً ولا وجوداً شغلهما الحب عن كل هذا . والحب اثر بطبعه . وما اكثر ما يعجز الانسان وآثاره مهما تكن عظاماً عن لفت العاشقين

عما هم فيه من سعادة بالقرب واشفاق من البعاد .

وقد وقفت عند كل ما في هذا الديوان من مقطوعات قصار وقصائد طوال وان كان شاعرنا قلما يطيل وقلما يبلغ العشرين من الابيات وان بلغها فهو لا يعدوها ..

وقفت عند هذا الشعر كله وقفات فيها كثير من الرضى الذي يمازجه غالباً شيء من القلق لأني أجد فيه من عذوبة الروح وصدق اللهجة ما هو جدير ان يحب . ولكني أجد فيه احياناً ألفاظاً وأساليب تنبو عن هذا الطبع الذي خلق للاجادة والاتقان .

وانظر معي في هذه الابيات فسترى فيها اختلافاً عجيباً ولكنه يعذب ويحبب الى النفس لولا نبوات للفظ تعرض لك فتقلقك عن مواطن الرضى ، سترى شاعرنا بدوياً كأنه ينظر الى امرىء القيس في الابيات الاولى من مقطوعته حين يصف رحيل الأحبة وما أثار هذا الرحيل في نفسه من حزن وأسى وما انهل في آثار أحبائه من دمع غزير كأنه الجمر . ثم ترى الشاعر ينظر فيه الى المتنبي في أول قصيدته المشهورة :

ليالي بعد الظاعنين شكول

طول وليل العاشقين طويل

ثم تراه آخر الأمر يصير الى الشعر المعاصر في مصر ولبنان ويوشك ان ينتهي الي غير شيء. وليس بهذاالاختلاف

بأس لو اتسق الشعر ولم يظهر فيه هذا الاضطراب القلق الذي يأتي من التناقض بين طبع شعري بدوي ولغة معاصرة أسرفت عليها الحضارة فكادت تدنو بها من لغة الحديث :

حارت الاشعار في مـاذا تقول
شرد الفكر وقد جد الرحيل

فانظر الى اول هذا البيت، الى هذه الاشعار الحـــائرة التي لا تدري ماذا تقول، والى هذا الفكر الشارد وكيف أدى الشاعر هذا المعنى بلغة الحديث في اندية الشبـاب . ثم انظر الى ختام البيت فسيعيدك فجأة الى هذا الرحيـــل الذي جد كأنك ترى ابل الظاعنين وقـــد دفعت بهم الى اعماق الصحراء .

ثم اقرأ :

أزمعوا بيننا وشدوا رحلهم
فتوارى طيف احلامي الجميل

فسترى هؤلاء الظاعنين وقد ازمعوا بيناً وكنت اتوقع ان يقول الشاعر بعد هذا شدوا أرحلاً .

ولكن الشاعر لم ير امامه الا رحلاً واحداً شده هؤلاء الظاعنون فاستقام له شطر الوزن الاول من البيت ولكن بعد ان انحرف عما كان ينبغي له من رصانة اللفظ والصورة جميعاً .

وتهاوى الدمع في آثـــارهم
وهو كالجمر على الخد يسيل
انهـا وحي اراها أدمعـاً
تملأ الاجفان (والليل يطول)

والشاعر يؤنث الروح في ديوانه كله ماضياً مع كثير من المعاصرين في ذلك ولو قد ذكره لمضى مع الفصحاء من شعراء البادية ولزاد بيته الجميل جمالاً :

يا فؤادي، ان يكن جد النوى
فليـــاليك من اليوم شكول
ليس فيهـــن رؤى بسامـــة
كل ما فيهن شكوى وذهول
ولقــــد أقفرت الدنيــا فما
تبصر الأعين الا مـــا يهول
أربـــع مقفرة في صمتهـــا
وشتـــاء ليتـه عنـــا يزول

وانظر الى ختام هذا البيت الاخير كيف ادركه الضعف بعد ان ابتدأ البيت قوياً متيناً وكيف تحس ان الشاعر انما ختم بيته على هذا النحو لأنه كان في حاجة الى هذا الفعل يقيم به الوزن والقافية جميعاً :

وظلال يبست اغصانهـــا
وأمان لم تزل فيك تجول

فانظر الى هذه الظلال التي يبست اغصانها الى ما فيها من تكلف، واحسب الشاعر اراد ان يضع جناناً مكان الظلال فأخطأه اللفظ :

ما تراها يا فؤادي ضلـــة
تعبت فيهـا نفوس وعقول
ان تكن بالوهم تحيا بعدما
جد منه البين فالوهم ذليل
ما ترانا سفحت ادمعنـــا
وكذاك الدمع للوجد رسول
نحن صرعى لفتات ورؤى
وأمـــان ما اليهن سبيـــل

وكذلك ترى الشاعر حائراً بين طبعـــه البدوي الذي عده بدقة الحس ورقة الشعور وصدق اللهجة ولغته المتحضرة التي لا تكاد تلائم طبعه الصـــادق الشاعر الخصب الا في شيء من القصور .

واستطيع لو استجبت لنفسي ان اروي كل مـــا في هذا الديوان فهو كله جدير ان يروى على ما يشع فيه من قلق لا يقتصر على الشاعر وانما ينال القارىء ولا سيما اذا كان هذا القارىء قد ألف من اهل نجد والحجاز في عصورهم المزدهرة تجاوباً قوياً بين ارواح الشعراء وألسنتهم. ولكني اختم هذا الحديث بهذه المقطوعة الحلوة التي غنى

فيها المغنون وليتهم لم يفعلوا . فقد خرجوا بها عما ينبغي لها من الصدق في تصوير الحزن والحنان الى هذا النحو من التلاعب بالصوت والعبث بالألفاظ ، وافساد بعضها لسوء النطق بها كما يفعلون بكلمة الامر في البيت الثاني فيفتحون بالهمزة في اولها افواههم وحلـوقهم الى اقصى ما يمكن ان يفتحوها ، ثم يضمون شفاههم فجأة على الميم ثم يفخمون الراء شيئاً فيقرعون الاذن ويصدمون الذوق صدماً مزعجاً وهذه الابيات هي :

سمراء يـا حلم الطفولة  يا منية النفس العليله
كيف الوصول الى « حما  ك» وليس لي في الامر حيله
ان كان في ذلي رضا  لك فهـذه روحي ذليله

وليت الشاعر وضع نفسه مكان روحه في هذا البيت :

ووسيلتي قـلـب بـه  مثواك ان عزت وسيله
فلـترحمـي خفقـاته  لك واسمعي فيه عويله
قلب رعاك وما ارتضى  في حبه ابداً بديلـه
أسعدته زمنـاً وروى  وصلك الشافي غليلـه
ما بال قلبك ضل عن  ه فما اهتدى يوماً سبيله
وسبيلك الذكـرى اذا  ما داعبتك رؤى جميله
في ليلـة نسج الغرا  م طيوفهـا بيد نحيله
وأطال فيها سهد كل  متـيم يشكـو خليلـه
سمـراء يـا امـل الفؤا  د وحلمه منذ الطفوله

ألا ترى معي ان هذا الشعر يسيل عذوبة ورقة وخفة روح وانه غناء نفس محرومة حقاً وانه صالح للغناء لو حسن الغناء في هذه الايام .

وما من شك في ان لشاعرنا الامير طبعاً خصباً وقلباً ذكياً وشاعرية ممتازة لو استطاع ان يفرغ لها ويمنحها من وقته وجهده وعنايته وأناته ما ينبغي لها، اذن لبلغ من الشعر ولبلغ به من نفوس القراء اقصى ما يريد وما اظن انه يستطيع ان ينصرف عن هذا الشعر لأنه سيظل محروماً دائماً هذا اللون من الحرمان القاسي وسيضطر الى ان يسري عن نفسه ويفرج عن قلبه بهذا الغناء ولقد أتيح له نجح حسن في هذا الديوان ولكني مطمئن الى انه سيبلغ اضعاف هذا النجح في ديوانه المقبل ان شاء الله .

# أصداء النيل

اما اليوم فسأحدثك عن شعر جديد كل الجدة ، قديم مع ذلك ممعن في القدم ، هو جديد لانه صاحبه معاصر يعيش الآن وهو في ريعان الشبـــاب ، ما أحسبه جاوز الثلاثين الا قليلاً . وموضوعاته كلها معاصرة ، نتحدث عنها حين يلتقي بعضنا بعضاً ، يكتب فيها كتابنا وينظم فيها شعراؤنا وتضطرب بها خواطرنا . فهو يذكر مصر المعاصرة التي نعيش فيها ، ويذكر السودان المعاصر الذي يعيش فيه . وهو يذكر بلاد الانجليز التي اقام فيها اعواماً . فعرف مدنها وقراها ومطرها وضبابها وبلا من خصال أهلها فنوناً وألواناً . وهو يبكي هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأخيرة رغم اقامته في بلاد الانجليز واتصـــال الأسباب بينه وبينهم . وهو يصف أشياء كثيرة يألفها الناس جميعاً في هذه الأيام . فليس في موضوعات شعره شيء تنبو عنه

طباعنا ، او تنفر منه اذواقنا . ولكنه على هذا كله ممعن في القدم لأنه يصطنع لغة وأساليب لا يذوقها الا الأقلون الذين يذوقون الشعر العربي القديم ، والقديم جداً ، هذا الذي نقرؤه للجاهليين والاسلاميين من شعراء القرنين الأول والثاني ، ولا بد من ان أتحفظ حين أذكر شعراء القرن الثاني . فشاعرنا لا يصطنع لغـة ابي نواس ومسلم ومن اليهما وأساليبهم وانما هو يصطنع لغة الذين يؤثرون جزالة اللفظ والأسلوب منهم كبشار ومروان بن ابي حفصة وعسى ان يؤثر الغريب اكثر من هذين الشاعرين ومن يذهب مذهبهما وهو لا يتعمد ذلك وانما يدفعه اليه طبعه وذوقه وبيئته جميعاً وهو لا يحس العجز عن سلوك الطريق التي يسلكها اهل هذا العصر في البلاد العربية ، او في المهاجر الامريكي وانما يحس القدرة كل القدرة على ذلك . وقد جربه وأطال تجربته ولكنه صد عنه صدوداً لأنه كرهه وضاق به ورأى انه لا يلائم طبعه ولا ذوقه ولا مذهبه في الجمال .

ذلك انه بدوي النشأة بدوي الثقافة في الطور الاول من حياته . درس اللغة العربية فأتقن درسها وتعمق الشعر العربي القديم كما لم يتعمقه احد من المعاصرين وقرأ الشعر العربي في العصور المختلفة ودرسه درس المتقن له ولكن شعرنا القديم وحده هو الذي استأثر بمكان الرضى من قلبه وعقله وذوقه جميعاً . وقد خلق شاعراً دقيق الحس ثائر العاطفة

حاد الشعور مرهف المزاج قوي الخيال ، ولكنه حين اراد ان يعرب عن ذات نفسه اعراباً يلائم طبعه وهواه سلك الى ذلك طرقاً مختلفة فلم يعجبه من هذه الطرق إلا نهج القدماء من شعرائنا . فآثرها وأمعن فيها كأنه خلق لها وكأنها خلقت له . والعجيب من امره انه وفق من ذلك الى اروع ما يتاح لشاعر ان يبلغه من الاجادة والاتقان . وأعجب من هذا انه طوع الحضارة الحديثة للغته القديمة او طوع لغته القديمة لهذه الحضارة الحديثة ، فلاءم بينهما ملاءمة لا تحس فيها نبواً ولا اعوجاجاً .

وانت تقرأه حين يصف مظاهر الحياة في بلاد الانجليز فلا تجد في وصفه تكلفاً ولا تعملاً وانما تراه يمضي مع طبعه الخصب في يسر واسماح لا يشق عليه وصف ولا يعييه تصوير ، وانما يشق عليك انت في كثير من الاحيان ان تسايره او تتبعه لأنك تشعر بالحاجة الى ان تقف لتفهم عنه او لتبحث عن هذا اللفظ او ذاك في معجم من معجمات اللغة او لترد هذا الاسلوب او ذاك الى ما ألفت من صور التعبير . فأنت لا تقدم على قراءته الا اذا كنت من أولي العزم اولاً ومن اصحاب العلم الدقيق العميق الواسع باللغة العربية وأسرارها وغريبها ، وأساليبها حين يلتوي بها الشعراء عن منهجها الواضح المألوف .

وليس في هذا كله شيء من الغرابة . فقد قلت انه بدوي النشأة والبيئة والثقافة في الطور الأول من حياته

وأضيف الى ذلك اني لا اعرف معاصراً عربياً تعمق مثله درس الشعر العربي وأوزانه وقوافيه ودقائقه وموسيقاه . وهو قد درس هذا كله اوفى دراسة وأشملها في كتاب ضخم يقع في جزءين عظيمين وهو كتاب « المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها » .

وقد وصفت الجزء الاول من هذا الكتاب منذ قريب من عامين . فأي عجب في ان يكون صاحب هذا الكتاب مؤثراً بطبعه لمذهب القدماء في شعرهم . وهو قد فتن بالشعر العربي القديم فتنة لا حد لها ولا غاية ، فهو ينبئنا بأنه قرأ الشعر الإنجليزي على اختلاف ألوانه وعصوره فلم يجده قادراً على ان يثبت للشعر العربي . ولم يستثن من ذلك شعر شكسبير على غرابة الموازنة بين الشعر العربي والشعر الانجليزي وشعر شكسبير خاصة لأن الأمر مختلف بين الشعرين ولأن اسباب الموازنة بينهما لا تتصل ولا تستقيم . فلم يخطر لشاعر عربي قديم ان من الممكن ان يذهب شاعر بشعره مذهب شكسبير او ملتون او بيرون او غيرهم من شعراء الانجليز والاوروبيين عامة .

كل شيء بين الشعرين مختلف والموازنة بينهما عبث من العبث . ولكن الافتنان بالشعر العربي قد ملك على شاعرنا امره ودفعه الى هذا الغلو الذي لا ينتهي الى شيء . وقد آن لنا ان نصل الى شعر صاحبنا وان نقف عنده وقفات قصاراً تعطيك منه صوراً الا تكن دقيقة كل الدقة فهي

مقاربة اشد المقاربة . وأعترف بأني اجد في هذا شيئاً من الجهد . مع اني احب هذا الشعر واستعذبه وأرضى عنه ولكن كما اذوق شعر جرير واستعذبه وأرضى عنه . ولو كنت شاعراً لما سلكت طريق شاعرنا الأديب لأني أوثر ان اصل الى قلوب الذين يقرأونني وأذواقهم .

واذا تكلفت انا هذا الجهد لأقرب اليك هذا الشعر فلا اقل من ان تتكلف انت هذا الجهد لتقرأ وتفهم وتذوق وتعلم آخر الامر ان الشعر العربي القديم ما زال حياً في بعض المواطن العربية . كان حياً في اوائل هذا القرن حين كان الكاظمي رحمه الله ينظم قصائده الغر وهو حي في هذه الايام حين نقرأ هذا الديوان ودواوين اخرى لم ينشرها شاعرنا المجيد بعد . وكنا نقول ان شعراءنا الذين عاشوا في اواخر القرن الماضي وفي الثلث الاول من هذا القرن من امثال البارودي وشوقي وحافظ قد اسرفوا على انفسهم وعلى الناس في تقليد العباسيين ، فكيف بمن يذهب مذهب الجاهليين الاسلاميين غير مقلد ولا متكلف .

واقرأ معي هذه الأبيات :

طربت لذكر النيل اذ شط منزلي
بلندن حولي كل اعجم رطـــان
وهيجني صوت البـــلابل صدحا
وأسراب طير ذي وصيع وأرنان

ألم ترني اصبحت في الناس مفرداً
وخــان وما خنت المودة خلاني
وجربت من دهري صروفاً وزارني
زرافات احداث له بعد احـداث
فراق احبــاء وثكل عشــيرة
واخفــاق آمال وهجرة اوطـان
فـا اوهنت مر الليـالي جلادتي
ولا عاصفات الدهر فللن صواني

وأول ما يلاحظه ايسر القراء علماً بالشعر العربي القديم هو هذه القافية التامة المطمئنة لهذه الابيات . وكل من له المام بالأدب العربي يذكر حين يقرأها او حين يقرأ البيت الاول منها شعراً قديماً ينسب الى امرىء القيس جاء على هذا الوزن وعلى هذه القافية وأوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان
ورسم عفت آياته منذ ازمـان

وما اشك في ان شاعرنا قد نظر الى هذا الشعر القديم حين نظم هذه الابيات او هذه القصيدة التي اختار لنا منها هذه الابيات . فبينه وبين شعره نوع من العهد يملكه الفن فلا يستطيع الا ان يستجيب له ويكتب ما يملي عليه . فاذا انجلى عنه شيطان الشعر نظر هو في هذا الشعر فأثبت منه

ما يختار ومحا منه ما لا يختار .

وهو لا يكاد ينظم قصيدة جادة الا نظر على نحو من الانحاء الى نموذج قديم .

وانظر بعد ذلك الى البيت الثاني فسترى فيه ميلاً ظاهراً الى الغريب فصوت البلابل الصادحة يثيره ويهيج عواطفه وحنينه الى وطنه . ولكن البلابل وحدها لا تكفيه . فهناك اسراب اخرى للطير بعضها ضعيف الصوت وهي ذات الوصيع . والوصيع صوت صغار الطير كما يقول هو في شرح الديوان . وبعضهـــا الآخر له ارنان وهو الصوت الرفيع . فانظر الى هاتين الكلمتين الوصيع والارنان يرى الشاعر انهما لفظان فصيحان لا غبار عليهما وهما من ألفاظ الشعر القديم فيقبل عليهما مبتهجاً بهما ولا عليه ان يسيغهما القارىء المعاصر او لا يسيغهما ، فهو كغيره من ذوي الاصالة في الشعر يفكر في فنه ويستجيب له قبل ان يفكر في قارئه وفيما يسيغ او لا يسيغ .

وانظر الى البيت الثالث فسترى في شطره الأخير أسلوباً ألفه الشعراء القدماء وعني به النحويون عناية شديدة . ولكن المحدثين لا يألفونه ولا يكرهون الاعراب عنه حين ينشئون الشعر والنثر . وذلك قوله : وخان وما خنت المودة خلاني .

يريد ان يقول : وخان خلاني المودة وما خنتها انا . فآثر الايجاز في هذا الاسلوب الجميل كما فعل امرؤ القيس

حين قال :

ولو ان ما اسعى لأدنى معيشة    كفاني ولم اطلب قليل من المال

اراد ان يقول : كفاني قليل من المال ولم اطلب كثيره .

وهذه الزرافات والأحدان في البيت الرابع نعرفهما في الشعر القديم ولا يكاد الشعراء المعاصرون يلمون بهما . والشاعر بالطبع يريد ان يقول ان الأحداث ألمت به مفردة ومجتمعة .

وفي البيت الاخير أنث مر الليالي لأن القدماء يفعلون ذلك في شعرهم واضطر الى ان ينبهنا الى ذلك . واتخذ الصوان قافية له ايثاراً لجزالة اللفظ ورصانته . وأي شيء امتن وأرصن من الصوان . ولكن انظر الى ما كلفته هذه القافية من تشبيه نفسه بالصخور الصلبة التي لا توهنها احداث الزمان . فهذا الشعر جزل رصين فيه ايثار للغريب من الاساليب وهو مع ذلك يؤدي به معاني قريبة كل القرب يسيرة كل اليسر . وأي شيء اقرب وأيسر من ان يذكر من ابناء النيل في لندرة نهره العزيز فيطرب لهذه الذكرى ويحن للنيل ويهيج عواطفه غناء البلابل وأصوات صغار الطير وكبارها . ثم يدعوه هذا الحنين في غربته الى ان انفراده ووحدته لا لأنه غريب فحسب ، بل لأن اخوانه قد خانوا عهده ونسوا مودته وهو لهم ذاكر ولعهدهم وفي . على انه لا يشكو الغربة وتضييع اخوانه للعهد والود فحسب

وانما يشكو معهما هذه الأحداث التي ألمت به جماعات وأفراداً وهو يستقبلها ثابتاً لها جلداً صبوراً عليها .

كل هذه المعاني قريبة يسيرة كما ترى ، وهي جديرة ان تؤدى في ألفاظ وأساليب قريبة يسيرة مثلها تبلغ القلوب في غير مشقة ولا جهد . ولكن ماذا تصنع وصاحبنا قد خلق للحزن ولا للسهل . وهو بالطبع يرى هذه الألفاظ والأساليب قريبة كل القرب يسيرة كل اليسر ويستطيع ان يقول لنا انكم تنكرون هذه الألفاظ وهذه الأساليب لأنكم لم تألفوها في شعركم ولا في نثركم ولا فيما تعودتم قراءته من الكتب والدواوين . وما عسى ان تقولوا لو اني آثرت ألفاظ رؤبة والعجاج وأساليبهما . فلم اتح لكم ان تقرأوا شعري الا مع مراجعة المعجمات وكتب النحو والغريب لتفهموا كل بيت من ابياته .

والحمد لله على انه لم يفعل ولو قد فعل لكان انما ينشيء الشعر لنفسه ولأمثاله الذين يحصون .

وشاعرنا شديد الحب للنيل لا تكاد تخلو من ذكره قصيدة او مقطوعة من شعره ، وهو يؤثر النيل على كل شيء ، ويؤثر الحياة في وادي النيل على كل ألوان الحياة مهما تكن الظروف . وهو مع ذلك شاعر يشتاق الى النيل فيطرب لذكره ويحن اليه ما اقام في بلاد الانجليز . فاذا عاد الى النيل شاقته لندرة وما عرف فيها من علم وجمال وسحر . وأي غرابة في ذلك . فالشعراء يرضون فيقولون

خير ما يعلمون ويسخطون فيقولون شر ما يعلمون . وقديماً قال رسول الله : ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما .

وانظر الى ابيات اخرى من هذا الديوان يصف فيها الشاعر حنينه الى النيل ويصور فيه الطبيعة تصويراً جميلاً رائعاً مؤثراً في النفوس حقاً ويحذو فيها حذو امرىء القيس ايضاً في الوزن والقافية ولكنه لا يصطنع اللفظ الغريب الا قليلاً :

بلندن مالي من انيس ولا مال
وبالنيل امسى عاذري وعذالي
ذكرت التقاء الأزرقين كما دنا
اخو غزل من خدر عذراء مكسال
ينازعهـا كيما تجـود وينثني
وقد كاد محبوراً مؤانس آمال

اذا الابيض الزخار هاج عبابه
له زجل من بين جال الى جال
ترافقه من فوق قزع الطخا
فتحسبهن الطـير تهفو لأوشال
ويا حبذا تلك السواقي وقد غدت
بألحان عبرى ثرة العين مشكال
ونخل اذا ما البدر اشرق خلفه
اطل على الرائين كالعنق الحالي

وشوك سيال يلمع النور فوقه

طرائق مثل الذر يلمع في الآل

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة

بكثبان داري والأحبة احوالي

وهل اسمعن الدهر تغريد طائر

وبالفجر ترجيع المؤذن والتالي

اترى الى وصفه لالتقاء النيل الازرق بالنيل الابيض وقد شبهه هذا التشبيه البدوي الذي بعد به العهد وحجبته عنا القرون لولا انا نقرؤه في الشعر القديم . فأحد النهرين عذراء مكسال والآخر يسعى الى خدرها كأنه امرؤ القيس في لاميته المشهورة :

ألا عم صباحاً ايها الطلل البالي

وهل ينعما من كان في العصر الخالي

وفيها يقول :

سموت اليها بعدما نام اهلهـــا

سمو حباب الماء حالاً على حال

او كأنه عمر بن ابي ربيعة في رائيته التي اولها :

أمن آل نعم انت غاد فمبكر

غـــداة غد أم رائح فمهجر

وانظر اليه كيف وصف اصطخاب النيل الابيض بأمواجه الزاخرة وقطع السحاب الرقيق من فوقه كأنها الطير تهفو

الى الماء لتحسو منه . وكيف وصف السواقي وهي تبكي على الشاطىء بكاء الحزينة ذات الدموع الغزار . وانظر الى النخل وقد اطل البدر من خلفه فخيل الى رائيه انه عنق قد اطاف به الحلى .

وانظر الى هذه الصورة الشعرية الرائعة وهي صورة شجر السيال يلمع النور فوق شوكه طرائق دقاقاً كأنه الذر يلمع في السراب .

ثم اسمع الى الشاعر كيف يتمنى ويسأل نفسه هل يتاح له ان يبيت ليلة على تلك الكثبان التي تقوم عليها داره حيث ينظر منها الى هذه الطبيعة الحلوة التي خالطت قلبه . وهل يتاح له ان يسمع ولو مرة تغريد الطائر اول الليل وآخر الصبح وصوت المؤذن وصوت من يتلو القرآن من آخر الليل وعند اسفار الصبح .

وليس عليك بأس من كلمة الطخا فهو قد فسرها لك في الديوان بأنها السحاب الخفيف والشاعر يحس احساساً قوياً انه غريب في شعره ايضاً لأنه يـؤثر جزالة اللفظ ورصانة الأسلوب والمعاصرون لا يحبون هذه الجزالة وانما يكلفون بهذا الكلام الهين اليسير المهجن الذي لا تزينه الفصاحة الخالصة .

فاسمع له كيف يقول :

ومالك والجزالة في زمان يحب به من القول الهجين

تبين به وليس له سميع وينظمه سواك فلا يبين

فان ذوي الجزالة قد طواهم
لدى غبرائه الزمن الخئــون

ولو قبل الشاعر منا لرددنا عليه بعض حزنه لأنه يستطيع ان يكون جزلاً رصين القول رائع اللفظ والأسلوب دون ان يورط نفسه ويورطنا معه في الطخا وفي السبنتاة وفي الوصيع وامثالها من هذه الألفاظ الغلاظ التي تسجل في المعجمات لنستعين بها على فهم النصوص القديمة . ولكن جريان الألسنة بها حتى في اجمل الشعر وأروعه قد انقضى عصره منذ عهد بعيد .

ولغات الناس صورة لحياتهم فاذا اتخذوها وسيلة الى الفن تخيروا منها أصفاها وأنقاها وأحسنها مساً للسمع وموقعاً من القلب وملاءمة للذوق .

وليس يكفي ان يقرأ الانجليزي شعر شكسبير ليتخــذ ألفاظه وأساليبه نماذج يحتذيها ولا ان يقرأ الفرنسي المعاصر شعر راسين لينظم الشعر على مثاله ولا ان يقرأ الايطالي شعر دانتي ليصطنع ألفاظه وأساليبه التي كانت تجمل وتروق في القرن الرابع عشر وما زالت الى الآن تجمل وتروق حين يقرؤها الممتازون من العلماء والأدباء ولكنها لا تقبل من كاتب أو شاعر معاصر .

واللغة العربية كغيرها من اللغات تحيا مع الناس الذين يتكلمونها وتخضع لما يخضعون له من أطوار الحيــاة

وخطوبها تغلظ حين تغلظ الطباع وتلين وتعذب حين تعذب البطاع وتلين .

وليحدثني الشاعر المجيد كيف السبيل الى أن يفهم القاريء المعاصر ذو الثقافة المعتدلة من الأدب العربي مثل هذا البيت دون أن يرجع الى المعجمات ويفهم ما تروي من الأمثال والشواهد من شعر جرير والذين عاصروه ، وأين نحن من جرير ومعاصريه :

فظلت أروض النفس بعد نفارها
وأكرهها حتى استمر مريرها

أي الناس يستطيع أن يفهم هذا البيت اذا لم يكن من أساتذة الأدب الذين عرفوا دقائق اللغة وتعمقوا شعر القدماء من شعرائها . ولا سيما [ حتى استمر مريرها ] هذه وما على الشاعر لو قد آثر اليسر فقال : حتى اشتدت قوتها وعرفت كيف تحتمل الأحداث وتصبر لها .

والبيت الذي يلي هذا البيت كيف السبيل الى فهمه دون الرجوع الى المعجمات :

على حين قاربت الثلاثين وانتمت
الى المرء أحداث كثير شقورها

لفهم كلمة الشقور هذه . والشاعر نفسه يفسر لنا هذه الكلمة بأنها الأمور ، فما ضره لو اصطنع كلمة الأمور نفسها فأقام وزنه وقافيته ولم يغير من جمال الشعر شيئاً :

سكرى الشباب سبنتاة اللحاظ لها

فتلك بنفسي وخمر بين أوصالي

وهذا البيت وكلمة السبنتاة خاصة فيه كيف يستطيع المعاصرون أن يفهموها دون الرجوع الى معجم من المعجمات ! وكيف السبيل الى أن يذوقوها بعد أن يفهموها !

وأشهد لقد صادفت هذه الكلمة في شعر قديم رثي به عمر بن الخطاب رحمه الله فضقت بها أشد الضيق لأني قرأت هذا الشعر في ايطاليا ولم يكن لسان العرب قريباً مني وانما كان بيني وبينه البحر أو بيني وبينه السفر الى روما في البيت المشهور :

وما كنت أخشى أن تكون وفاته

بكفي سبنتاة طائش الكف أخرق

أما شاعرنا فيصطنع السبنتاة هذه في وصف عذراء حسناء قد أسكرها الشباب وأي بأس عليه لو اصطنع كلمة أخرى تؤدي معناه ولا تشق على الأساتذة والطلاب وأوساط الناس جميعاً .

وعلى رغم هذا كله فشاعرنا فذ ما في ذلك شك ليس في ديوانه على طوله بيت واحد يمكن أن يطرح أو يهمل . وهو يعرف احياناً كيف يعذب ويلين حين يعبث وحين يداعب الطبيعة او يتحدث الى الاطفال فهو قد مارس التعليم وهو الآن استاذ ولكنه مع الأسف حين يعبث لا يلبث ان

يسأم السهولة ويضيق بها ويقول في آخر مقطوعة من مقطوعاته : هذا كلام فارغ ونؤثر اطراحه .

وليست المقطوعة كلاماً فارغاً وانما افرغها عنده انها لا تشتمل على الطخا ولا على السبنتاة ولا على ما يشبهها من هذه الألفاظ التي هي الى نوادر ابي زيد الانصاري اقرب منها الى اي شيء آخر .

وللشاعر غناء رائع كنت أحب ان اقف عنده وأن أطيل الوقوف ولكن ان فعلت لم افرغ ولم يفرغ القارىء ولم يجد هذا الحديث مكانه في « الجمهورية » .

ومن حق كل مثقف في الأدب العربي ان يقرأ هذا الديوان فسيجد فيه متعة لا شك فيها وروعة قلما تظفر بها في شعر معاصر ولكنه محتاج دائماً الى ان يكون المعجم قريباً منه .

ولي بعد هـذا كله عتب على الشاعر المجيد وعتب لا يخلو من مرارة ومن بعض ما يجد الصديق من خيبة الأمل . فما هذا التعريض بمصر في بعض شعره او ما خوفه ان تستأثر مصر بالنيل من دون السودان ومتى خطر لذي عقل ان مصر يمكن ان تستأثر بخير دون جيرانها من قرب منها ومن بعد عنها .

والتاريخ لم يعرف مصر منذ اقدم عصورها الا مؤثرة على نفسها لا تكره ان توسع على غيرها وان ضاق بها العيش . وما اعرف ان مصر استأثرت بشيء دون جيرانها في يوم من الأيام والشاعر نفسه فيما اعلم مدين لمصر بالكثير فبعلمها عرف العربية وتثقف فيها وبلغ من الفقه بها ما بلغ .

والشعر الذي يغمز فيه مصر هو قوله :

واني لأخشى ان ارى النيل في غد
شريعــة مصر علها وانتهالهــا

ونحن الى واد خصيب ومنزل
سباسب تقلى النـــاجيات اعمالها

نحن الى واد خصيب ومنزل
ونخل على شاطئيه ارخت ظلالها

ونبدل خطـــا بعد جنتنا التي
جنينا جناها وارتوينا زلالهـــا

عفا الله عنك ايها الشاعر الصديق ما اكثر ما ذكرت خيانة الود ونقض العهد والاخلال بحق الاخاء . وهأنتذا تورط نفسك في بعض ما انكرت على من خان عهدك من الاخوان والخلان فاردد علي نفسك بعض حلمك ولا تطع الهوى فيضلك عن سبيل الله واذكر قول الشاعر القديم :

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى
الى بعض ما فيه عليك سبيـــل

وأنا على رغم هذا كله اهنئك بشعرك الرائع واتمنى ان يذوق منه قراؤك مثل ما ذقت وان يجدوا فيه من الروعة مثل ما وجدت وان كان هذا على اكثرهم عسيراً .

# في الذوق الأدبي

## ١

عشت هذين اليومين الأخيرين في عصر ما أحسب أن كثيراً من قرائنا اليوم يعيشون فيه بل ما أحسب انه يخطر لهم على بال ، وهو القرن الثامن عشر الفرنسي . واقول ان كثيراً من قرائنـــا — ولا بأس من ان اضيف اليهم شعراءنا وكتابنا — لا يعيشون فيه ولا يخطرونه لأنفسهم على بال لأنهم قلما يفكرون في امس وقلما يعنون التفكير في غد وانما هم يعيشون لا اقول لليوم الذي هم فيه بل للساعة التي هم فيها . وربما علقوا آمـــالهم بالغد لأنهم يرجون ان يكون خيراً من اليوم ثم لا يكادون يصنعون لهذا شيئاً .. أما أمس فقد مضى بخيره وشره وحلوه ومره واصبح الرجوع اليه اضاعة للوقت كما اصبح التفكير فيه لونـــاً من العبث . وحسبهم انهم شقوا بالامس القريب

والبعيد ايام كانوا تلاميذ يحفظون التاريخ ويتهيأون للامتحان فيه ويرهقــون انفسهم به وبغيره من مواد الدراسة اشد ارهاق ويجاهدون انفسهم في بعض ساعات العناء على ان ينسوه ويعرضوا عنه متى وضعوا عن انفسهم اعباء الدروس والامتحان .

ولم أعش في سياسة القرن الثامن عشر ولا في علمه ولا في فلسفته وانما عشت في ادبه وبين اثنين من ادبائه خاصة هما مونتسكيو وفولتير وربما لقيت اديباً ثالثاً من ادباء ذلك العصر فكلفت به واخذت نفسي بأن أعود اليه من غد وهو « ديدرو » .

وقد عشت بين هؤلاء الادباء في قراءة آثــار ضئيلة جداً لهم ممتعة على ضآلتها كل الامتاع لأنها تدور كلها حول الذوق الادبي . يتحدث بعضهم عنها رمزاً فيترك العصر الذي يعيش فيه والبيئة التي يضطرب بين اهلها بل يزعم انه ليس هو الذي يتحدث وانما يترجم عن يوناني قديم عاش في القرن السادس قبل المسيح — وجعل للذوق الهاً وجعل له معبداً وجعل يتخير من يؤذن له في الالمام بهذا المعبد والقرب من هذا الاله ومن يجب ان يقصى عنه اقصاء ويحظر عليه الدنو منه فضلاً عن الولوج فيه .

وهذا الاديب هو مونتسكيو في رسالة صغيرة جداً له تقرأ في أقل من ساعة ولكنها تفرض عليك التأمل الطويل والتفكير العميق ساعات بل اياماً . واما الآخر وهو فولتير

فيجعل للذوق معبداً كصاحبه ولكنه لا يترجم عن أحد ولا يعيش في عصر قديم ولا يتحدث عن القدماء الا حين يحتاج الى ان يتحدث عنهم وانما يتحدث عن عصره وعن معاصريه والذين سبقوه قليلاً فيأذن لبعضهم في دخول المعبد ويرد بعضهم عنه رداً عنيفاً ويملأ قلوب كثير من الادباء عداء له وسخطاً عليه. وهو يكتب رسالته الصغيرة نثراً رائعاً ولكنه يزينها بالشعر بين حين وحين. وبمقدار ما يحرص مونتسكيو على ايثار العافية واتقاء المكروه يمعن فولتير في الصراحة ويسمي الناس بأسمائهم ويرمي بعضهم بسهام حادة نافذة. اما الثالث وهو ديدرو فيدرس الذوق على اختلاف موضوعاته درساً فلسفياً تحليلياً دقيقاً.

وكان العصر الذي عاش فيه هؤلاء الأدباء مشبهاً للعصر الذي نعيش فيه من بعض الوجوه. كان فيه اختلاف عظيم بين الادباء حول المثل الأعلى في الفن الأدبي، يراه بعضهم في تقليد القدماء من اليونان واللاتين ويراه بعضهم في تقليد الادباء الفرنسيين الذين عاشوا في القرن السابع عشر وأعطوا الأدب الفرنسي صورته الرائعة التي فرضت نفسها او ارادت ان تفرض نفسها على الأدباء في جميع العصور الفرنسية.

وآخرون يحاولون في استحياء ان ينشئوا لأنفسهم ادباً جديداً يلائم ما يطمحون اليه من الحياة الجديدة ولكنهم لا يبلغون ذلك لأنهم لم يتهيأوا بعد لانشاء هذا الأدب،

واولئك وهؤلاء يختصمون أشد الخصومة واقساها . يختصمون فيما يمثل في الملاعب وفيما ينشر من الكتب ويختصمون في هذا كله بالكتب يؤلفونها وبالمقالات يكتبونها وبالأحاديث يديرونها بينهم في الاندية والقهوات .

ولعل هذا التشابه بين العصر الذي عاش فيه اولئك الادباء والعصر الذي عشنا فيه منذ اوائل هذا القرن هوالذي اغراني بالرجوع الى تلك الآثار واطالة الوقوف عندها .

والذين يذكرون الربع الاول من هذا القرن لم ينسوا بالطبع تلك الخصومات العنيفة التي ثارت بين شباب الادباء وشيوخهم حول المثل الاعلى في الشعر اولاً وفي النثر بعد ذلك . ولم ينسوا ان المصريين خضعوا لتيارين خطيرين من التيارات الأدبية كان احدهما يأتيهم من الغرب الاوروبي وكان الآخر يأتيهم من الأدب العربي القديم الذي اخذ يحيا ويسيطر على النفوس والأذواق منذ اواسط القرن الماضي . ولعلهم يذكرون ان تلك الخصومات كانت خصبة حقاً وانها لم تمض مع رياح الصيف او رياح الشتاء وانما تركت في ادبنا العربي الحديث آثاراً ما زالت باقية وان كان كل شيء يدعوها الى العفاء في هذه الايام . وحسب هذه الخصومات انها انشأت نثراً عربياً خالصاً لم يفن في المغرب الاوربي ولم يفن في أدب الجاهليين والاسلاميين والعباسيين وانما صور شخصية مصرية ممتازة

من هذين الأدبين ثم أذاع هذه الشخصية فيما وراء حدود مصر من اقطار العالم العربي . وكان قوام هذه الخصومة الثورة على الفناء في القديم العربي من جهة الشباب والاغراق في المحافظة على هذا القديم من جهة الشيوخ . وكـــان أدباء الشباب يقومون مقاماً وسطاً بين الغلو في التجديد وبين الغلو في المحافظة يستمسكون باللغة العربية الفصحى لا ينحرفون عنها ولا يعنفون بها ولكنهم يرون هذه اللغة ملكاً لهم ولا يرون انفسهم ملكاً لها يطوعونها لما يريدون من اغراض الحياة الحديثة التي يحياها الناس والتي لم يعرفها القدماء ولكنهم لا يفسدون اصولها ولا يخرجون على قواعدها يستبيحون لأنفسهم ان يثوروا على المعجمات القديمة التي وقفت باللغة العربية عند القرن الثاني للهجرة ويبتكرون ما يحتاجون اليه من الالفاظ ، لا يجدون بذلك بأساً ولا يتحرجون من ان هذه الالفاظ ليست مسجلة في هذا المعجم القديم او ذاك فمن حقهم ان يسخروا اللغة لاغراضهم لا أن يسخروا انفسهم للغة ومن الحق عليهم اذن ان يغنوها ويضيفوا اليها من جديد الالفاظ ما لم يكن فيها . ثم يثورون كذلك على اساليب القدماء في التعبـــير الشعري والنثري لا يلزمون انفسهم ان ينظموا الشعر كمـــا كان ينظمه الجاهليون والاسلاميون والمحدثون من شعراء العصر العباسي او من شعراء الاندلس ولا يأخذون انفسهم بأن يكتبوا كما كان يكتب ابن المقفع والجاحظ وغيرهما من

الكتاب القدماء وانما يصطنعون من الاساليب ما يلائم قلوبهم واذواقهم وعقولهم الحديثة من جهة وما يلائم حاجاتهم وما تثير هذه الحاجات في نفوسهم من العواطف والخواطر والآراء. وهم على رغم ثورتهم هذه لا يفرطون في القديم وانما يحفظونه ويمضون في احيائه ؛ يرونه من كنوزهم النفيسة التي لا ينبغي التقصير في رعايتها وحمايتها وصيانتها من الضياع والفساد جميعاً . كانوا يصلون القديم بالجديد ويلائمون بين ما كان وما هو كائن ويحاولون ان يلائموا بين هذا كله وبين ما سيكون في مستقبل الايام.

كانوا يرون ان الامة العربية الحديثة لم تنشأ من غير شيء وانما نشأت من امة قديمة وكانوا يرون ان الحديث طور من اطوار الحياة الشعبية وان هذا الحديث سيصبح قديماً في يوم من الايام وسينشأ عنه حديث آخر وان الامة الحية هي التي تساير الزمن وتتأثر بالاحداث تأثر من ينتفع بها ولا يفني فيها وان تتطور حسب ما تمليه الظروف .

وكانوا يرون ان قدماء العرب قد اخطأتهم فنون من الادب لم ينشئوها لانهم لم يعرفوها وان على المحدثين بعد ان عرفوا هذه الفنون ان يوطنوها في بلادهم وان يواصلوها في لغتهم وان يشاركوا فيها ويسهموا في تنميتها وتطويرها كما يفعل اصحابها من الغربيين وهم من اجل ذلك حاولوا انشاء القصة الحديثة وحاولوا توطين التمثيل

في البيئة العربية ووفقوا من ذلك الى شيء كثير وكونوا لمصر المعاصرة ذوقاً ادبياً جديداً قد ينكره القدماء لو ظهروا عليه ولكنه على ذلك عربي خالص لا شك في عروبته ومصري خالص لا شك في مصريته وملائم مع ذلك كل الملاءمة لأغراض الحياة المعاصرة على اختلافها .

وكان قائلهم يقول ان قدمـــاء العرب قد عرفوا حضارات الأمم القديمة فأخذوا منها ما لاءم حاجاتهم وأضافوا اليه من عند أنفسهم ووطنوه في بيئته العربية الخالصة وأهدوه بعد ذلك الى الانسانية فأعانوها على الحياة وعلى الرقي في بعض العصور . وطوعوا اللغة ألفاظها وأساليبها لما نشأ لهم مـــن الحاجات والأغراض فهم حين يجددون انما يسلكون سبيل آبائهم من قبل لا يأتون بدعاً من الأمر ولا يخرجون على المألوف من مضي الأمم في حياتها الى أمام وقد انتصر أولئك الشباب في أعقاب الحرب العالمية الأولى انتصاراً لا ينكره ولا يشك فيه الا المحمقون ولم يكن لهم في تلك الخصومـــات ولا في ذلك الجهاد العنيف سلاح الا العزم والصبر والطموح والجد في الدرس والحرص عـــلى أن يأخذوا من الثقافة القديمة والحديثة بأعظم حظ مستطاع لم يقصروا في العلم بقديمهم وعسى ان يكون كثير منهم قد عرفه خيراً مما عرفه القدماء أنفسهم ولم يقصروا في العلم بالحديث على اختلاف مصادره، تعلموا من اللغات الأجنبية ما أتاح لهم أن يظهروا

على علوم الغرب وآدابه وثقافاته المختلفة وفتحوا للأجيال الناشئة أبواب هذا كله ومهدوا لهم طرقه بمقدار ما استطاعوا . واذا أردنا أن نحدد هذا الذوق الأدبي الحديث الذي أنشأه أولئك الشباب منذ أوائل هذا القرن الى أن كانت الحرب العالمية الثانية لن نجد في ذلك مشقة ولا عسراً فهو يقوم على شيء واحد هو القصد والتوسط بين الغلو في المحافظة الذي ينتهي باللغة العربية الى الجمود ثم الى الموت وبين الغلو في التجديد الذي ينتهي باللغة العربية الى الفناء في اللغات الأجنبية أو في الحياة الأجنبية أو فيما شئت من هذه الأغراض التي تعرض للذين يخرجون عن القصد فيغامرون فيفقدون قديمهم ولا يظفرون بجديد صحيح وانما ينتهون بلغتهم الى مثل ما تنتهي به المحافظة الغالية من الضياع والموت .

واقرأ ما شئت من آثار أولئك الشباب على اختلافها فستراهم دائماً محافظين على الطريق الوسطى لا يسرفون على أنفسهم ولا على قرائهم في محافظة ولا في تجديد وإنما يأخذون من كلا الطرفين بمقدار .

كذلك كان الذوق الذي عاش عليه الأدب المصري الحديث في النصف الأول لهذا القرن ولكن الأحداث تحدث والنوائب تنوب فالام صار هذا الذوق الأدبي الحديث الى فناء أم بقاء ؟ مسألة فيها نظر .

* * *

## ٢

كنت أسأل ، في القسم الأول من هذا المقال ، عن الذوق الأدبي الذي عرفه المصريون في النصف الأول من هذا القرن أصائر هو الى البقاء أم الى الفناء ..

وكان هذا السؤال لا يخلو من سرف ، فكل شيء يدل على أنه صائر الى تغير خطير هو بالفناء أشبه منه بالبقاء ولكن التفاؤل يغري بالأمل .. ولم تخل مصر بعد من قلة تؤثر ذلك الذوق الأدبي وتدعو اليه وتود لو أشاعته بين القراء وبين الكتاب والشعراء أيضاً .

ولا بد من تسجيل حقيقة ما أظن أحداً يجادل فيها وهي أن الشعر المصري الحديث أقل تطوراً وأبطأ حركة من النثر ، فالناس لا يصطنعون الشعر للاعراب عما يضطرب في نفوسهم من شؤون الحياة اليومية . وهم لا يحررون الصحف شعراً ولا يكتبون فيما يريدون أن يكتبوا فيه حين يؤلفون الكتب شعراً أيضاً وانما يصطنعون النثر في هذا العصر كما اصطنعوه في جميع العصور منذ تقدمت الحضارة لتأدية أغراضهم المختلفة . والشعراء يطرفون أنفسهم ويطرفون قراءهم بالقصيدة أو الديوان أو القصة التمثيلية الشعرية حين يتهيأ لهم ذلك وتدفعهم اليه الدوافع وتحس به نفوسهم وطباعهم التي تختلف حظوظها من الخصب وقدرتها على الاجادة والبراعة .

ومن هنا كان الشعر المعاصر محتفظاً بتلك المقاييس التي ألفها شعراؤنا في أول هذا القرن لم يكادوا يتحولون عنها . وهناك تجارب للتجديد في الشعر من حيث الأوزان والقوافي ومن حيث الموضوعات والأساليب ولكنها لم تعدُ طور التجارب والمحاولات . لم يتقبلها أكثر الذين يقرضون الشعر ولم يقبل عليها اكثر الذين يقرأونه ولم يمض فيها اصحابها لأنهم لا يجدون عليها تشجيعاً . ومن اجل هذا ظل الشعر المصري المعاصر في جملته كما عرفناه ايام الممتازين من شعرائنا لم يكد يتقدم خطوة الى امام وأصابه شيء من الجمود والعقم لأن الدنيا تغيرت من حوله ولم يستطع هو ان يساير التغير ولا ان يستجيب له .

واذا اتيحت الاجادة لشاعر من شعرائنا المعاصرين فقلّ ان يضيف الى ما ورثناه عن شعرائنا القدماء والمحدثين شيئاً ذا بال .

أما النثر فأمره مختلف جداً فهو قد ساير الحياة وتأثر بما أدركها من تطور وتأثر كذلك بما اصابها من قصور وعسى ان يكون قد اسرف في تطوره وبأسباب القصور والضعف اكثر مما تأثر بأسباب القوة والازدهار .

ولا بد من ان نلاحظ ان الذين طوروا الذوق الأدبي في النصف الأول لهذا القرن لم يكونوا كما يظن كثير من الناس في هذه الأيام يعيشون في البروج العاجية ولا يعتزلون الحياة الشعبية ولا ينأون بحال من الأحوال عن آلام الناس

وآمالهم ولا يهملون قدرتهم وطاقاتهم ، وانما كانوا يعيشون مع الشعب بل يعيشون بالشعب وللشعب . يعيشون لأنهم كانوا يعربون عن ذات نفسه يصورون له آماله ليحرص عليها ويجد في تحقيقها ويفتحون له آفاقاً جديدة من الأمل ليسرع اليها ويمعن فيها ويصورون له آلامه ليبرأ منها ويضع عن نفسه أثقالها ..

وأيسر القراءة فيما كانوا يكتبون تبين ذلك في غير لبس ولا غموض .

فهم الذين صوروا له الاستقلال وزينوه في قلبه .

وهم الذين بغضوا اليه الاحتلال وأثاروه على الانجليز.

وهم الذين كرهوا اليه الاستبداد وأطمعوه في الحرية وأغروه بالالحاح في طلبها .

وهم الذين أعدوه للثورة وأسخطوه على حياة سيئة كان يحياها وهيأوا ضميره ليسرع الى الخير حين يدعى اليه وينصرف عن الشر حين يرد عنه ويتقبل الاصلاح حين يعرض عليه .

وهم قوّموا الاستبداد ولقوا في مقاومته ضروباً من الأذى وفنوناً من النكر .

وهم قوموا المعوجين من الحكام وجدوا في صرف الشعب عنهم وتزهيده فيهم .

فعلوا كل هذا وتقبل الشعب منهم ما فعلوا واستجاب الشعب لهم حين دعوه واستمع لهم حين تحدثوا اليه .وآية

ذلك انه كان يقرأ لهم حين يكتبــون ويسمع لهم حين يخطبون او يتحدثون .

وهم على كثرة ما فعلوا وحسن ما أبلوا قد احتفظوا للأدب العربي بروعته ونضرته وأرسلت بعض الكتاب الى السجون وصادرت بعضهم الآخر في رزقه . كـــل هذا الشر كان عقبة خطيرة في سبيل الأدب المصري الحديث اثناء الربع الثاني لهذا القرن .

والغريب ان الأدباء في تلك الايام قد استطـــاعوا ان يقهروا تلك الظروف وينفذوا بما أقيم امامهم من المصاعب. حيل بين أقلامهم وبين الحرية في الصحف فأقبلـــوا على الكتب يؤلفونها ويستمتعون في تأليفها بالحرية الكاملة لأن الوزراء واعوانهم لم يكونوا يقرأون الكتب ولا يفرغون لها .

وكذلك كانت تلك الايام السود ايام خصب للتأليف والانشاء الأدبي الرفيع . ومن الكتّاب من عمد الى الرمز في بعض ما كان يكتب في الصحف وفي بعض ما كان ينشيء من الكتب . فداور السياسة حتّى غلبها وقال للظالمين ما أراد ان يقول . وهذه الأحكام العرفية التي اتصلت منذ أعلنت الحرب العالمية الثانية الى الآن ولم ترفع في هذه السنين الطوال الا فترات قصاراً . والأحداث الكثيرة التي عرضت فصرفت الناس او كادت تصرفهم في بعض الاوقات عن الفراغ للانشاء والقراءة .

فاذا أضفت الى هذا كله ان التعليم العام لم يستجب

لحاجات النهضة الأدبية وانما اقتضت ظروفه ألا يتقدم الا في بطء شديد واقتضت ظروفه ايضاً ان يحسب القائمون على اموره حساباً اي حساب للغالين في المحافظة والمسرفين في الجمود والمبغضين لكل تطور او تجديد. فظلت اللغة العربية وعلومها وآدابها تدرس للتلاميذ في مدارس التعليم العام اثناء هذا القرن كما كانت تدرس للتلاميذ منذ اكثر من ألف عام .

وظل التلاميذ يسمعون لدروس اساتذتهم دون ان يحققوها او يذوقوها ودون ان تقبل عليها قلوبهم او تستسيغها عقولهم . فكانوا يرون انفسهم مسخرين لهذه الدروس تسخيراً . وكانوا يرون الاقبال عليها شقاء والجد فيها عناء ثم يخرجون من المدارس وهم لا يقيمون ألسنتهم اذا تكلموا ولا يحسنون الاعراب عن نفوسهم اذا كتبوا لأنهم لم يتعلموا وسائل التعبير الصحيح الرائق بالكتابة او الكلام.

فأي غرابة بعد هذا كله في ان يقصر الشباب عن قراءة الأدب الرفيع او ذوقه ، فضلاً عن محاولة انشائه والمشاركة فيه .

وفي اثناء ذلك تطورت الصحافة تطوراً خطيراً ، فأعرضت او كادت تعرض عن الأدب بعد ان كانت تحبه وتكلف به وتتنافس في نشره وتغري بين الأدباء ليختصموا في مشكلاته .. اعرضت عن الأدب وانصرفت الى الأخبار والاعلان والاحاديث اليسيرة القصار التي تقرأ وتفهم في غير حاجة الى تفكير او تذوق او اي نوع من

انواع الجهد ، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، وانما شغفت الصحف بالصور وكثرت الصحف الاسبوعية التي تكتب للناس باللغة التي يتكلمونها وتكثر لهم من المغريات بقراءتها والمرغبات في الاقبال عليها والتنافس فى شرائها .

فاذا أضفت الى ذلك ما كان من اغراء السينما ، ومن الكلام الفارغ الكثير الذي تصبه الاذاعة في آذان الناس صباً في كل ساعات النهار وفي كثير من ساعات الليل ، لم تنكر ما ظهر في الذوق الأدبي من اعراض التغيير الذي يميل الى الضعف والانحلال لأنه آثر السهل على العسير وآثر من القراءة ما يعين على قطع الوقت ، وأعرض عن القراءة التي تكلف صاحبها الجهد في الروية والتفكير والتي تحتاج الى الأناة والتمهل ولا يلائمها السرع والعجل .

صحف يومية جادة قد اعرضت عن الأدب اعراضاً وآثرت ايسر ما يكتب ليقرأ في اقصر وقت وأيسر جهد .. وصحف اسبوعية تطلع مع الشمس في كل يوم على قرائها ، وهي تتحدث اليهم بلغة الشارع وتنشر لهم الصور المغرية وتسليهم بالفكاهات التي لا صلة بينها وبين الجمال الذي يستحبه الذوق .

فليس عجيباً بعد هذا كله ان يؤثر الشباب القريب منهم على البعيد عنهم ، وليس عجيباً ان يرى كل قارىء في نفسه القدرة على ان يكتب كلاماً يسيراً قريباً كهذا الذي يقرأ مصبحاً وممسياً وغادياً ورائحاً .

واذا الشباب كلهم كتاب ، واذا كل من استطاع ان يجري قلماً على قرطاس يرى نفسه كاتباً ، فان نشرت له الصحف ما يكتب فهو الأديب الذي ذاع اسمه في الآفاق وقرأته الألوف المؤلفة من القراء ، وان لم تنشر له الصحف ما يكتب فهو الاديب المغمور المظلوم الذي أهدر حقه وأنكر أدبه . ولم تظلمه الصحف وحدها ، بل ظلمه معها القراء ايضاً لأن قراءته لم تتح لهم . ومن حقه ان يسخط على الناس جميعاً ، ومن حق المظلوم ان يسخط على الظالمين وأحق الناس بسخطه عليهم هم الذين تنشر لهم الصحف ويراهم أقل منه براعة ، ويراهم مع ذلك قد ظفروا من الشهرة بما لا ينبغي لهم ان يظفروا به ،والسخط يدعو الى الحسد ، واذا كاتبنا المغمور المظلوم حاسد لكل كاتب يخلو له وجه صحيفة يومية او اسبوعية .

واذا كانت الصحف تروج على هذا النحو ويقبل الناس على قراءتها الى هذا الحد ، فما يمنع ان تؤلف الكتب بنفس اللغة التي تكتب بها الصحف ، وما يمنع ان تذاع هذه الكتب في الناس وان تنشر عليهم في مواعيد منظمة كما تنشر الصحف والمجلات . وما يمنع الناس ان يقرأوها مقبلين عليها راغبين فيها يستعينون بها على قطع الوقت وعلى احتمال اثقال الحياة ، ويتسلون بها عما يعرض لهم من الأحداث وما يلم بهم من بعض ما يكرهون . وكذلك يتبذل الذوق ويتبذل معه الأدب وتسقط معها

اللغة ويدركها الفساد . وفيم هذا العناء الكثير الذي يحتمله الأدباء المجودون ، وفيم قراءة هذا الكلام الذي يشق على الكاتب ان يكتبه ، ويشق على القارىء ان يقرأه ، ويشق على الذوق المبتذل ان يسيغه ، وابتذال الذوق والأدب وابتذال اللغة معهما لا يغير مع ذلك من الحياة شيئاً .

فالشمس تشرق وتغرب والليل والنهار يختلفان والأحداث تجري فيهما كما تعودت ان تجري . والنـــاس يسعدون ويشقون ويحزنون ويأسون كما كانوا يتعرضون لذلك كله حين كان الذوق مصفى والأدب رفيعاً واللغة نقية مبرأة من الفساد .

ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد وانما يتعقد شيئاً فشيئاً، لأن بعض المذاهب تطرأ وتصل الى مصر ويجد فيها بعض الشباب الذين يكتبون ملاءمة لضعفهم في اللغة وقصورهم في الأدب وايثارهم لليسر فيستحبونها اولاً ويكلفون بها ثانياً ، ويتعصبون لها آخر الأمر ويريدون ان تتسلط على الانتاج الأدبي والفني والنقد جميعاً .

ولكن حديث هذه المذاهب الأجنبية في الأدب وإقبال فريق من شبابنا عليها واستمساكهم بهـــا ، حتى بعد ان ضاق بها اصحابها ، حديث هذا كله يطول فلنرجئه الى القسم الثالث من هذا المقال .

* * *

## ٣

اذا أردت تحقيق التاريخ الأدبي للنصف الاول من هذا القرن فليس لك بد من ان تسجل ظاهرتين يحسن الوقوف عندهما وقفة قصيرة .

احداهما ان اللغة التي كان الناس يكتبونها كانت في جملتها لغة فصيحة ربما انسل الخطأ اليها بين حين وحين ولكن الفصاحة كانت عليها أغلب وبها ألصق .

وكانت هذه اللغة مع ذلك تذهب مذهبين في الاداء لما يريد الكتاب ان يؤدوه . يذهب الأدباء مذهب الارتقاء في الاسلوب والارتفاع عن كل مبتذل من اللفظ والاحتياط في غير الكلمات التي لا تسرف في الغرابة فيقصر عنها الفهم ولا تسرف في الاسفاف فيجفو عنها الذوق .

وكان أخص ما تمتاز به لغة الأدباء واساليبهم الصفاء والفصاحة والوضوح مع ذلك ، بحيث يستطيع اصحاب الثقافة العليا واصحاب الثقافة المتوسطة والذين تقل حظوظهم من المعرفة ان يقرأوها ويسيغوها ، ويجدوا الراحة اليها وربما وجد كثير منهم الشغف بها .

وكان كتاب الصحف يرسلون انفسهم على سجيتها ويجرون اقلامهم بما يواتيهم من الالفاظ والاساليب . لا يتعمدون انحرافاً تورطاً او يضطروا اليه اضطراراً .

وكانت الصحف تتنافس في آثار هؤلاء تنشرها بين حين

وحين تتجمل بنشرها وتتقرب به الى قرائها الذين يحبون رائع القول ويودون لو اتيح لهم بين حين وحين في شيء من اليسر لا يكلفهم عناء ولا يرزؤهم في اموالهم شيئاً .

فكانت هناك اذن اللغة العليا واللغة المتوسطة ، كلتاهما فصيحة، ولكن حظهما من العناية والتجويد يختلف اختلافاً ظاهراً تدعو اليه طبيعة الأدب من ناحية، وطبيعة الصحافة من ناحية أخرى .

فالأديب محتاج الى المهل والأناة والى الروية والتفكير والى ايثار الجمال والصدق حين يشعر أو يفكر وايثارهما أيضاً حين يعرب عن عقله وقلبه ، لا يتحكم فيه الوقت ولا تعنف به الضرورات المختلفة .

والصحافة محتاجة الى السرعة ومحتاجة الى النظام الدقيق ومحتاجة بعد هذا كله الى أن تملأ الأنهار التي أخذت نفسها بأن تقدمها الى قرائها في كل يوم أو في كل أسبوع .

والأديب يكتب للذين يسيغون الأدب ويقولونه ويجدون في قراءته لذة ومتاعاً .

والصحفي يكتب لكل قارىء أو قل يكتب لكل انسان . فما أكثر ما يجلس الأميون الى هذا القاريء أو ذاك ويستمعون لما يتلى عليهم .

وليس بد للصحفي من أن يكتب لهؤلاء جميعاً كلاماً يفهمونه حين يقرأونه أو يسمعونه. ولم تخل مصر مع ذلك من صحف أسبوعية فكاهية تتحدث الى الناس بلغة تلائم

ذوق الشعب لا تكلف في ألفاظها ولا تأنق في أساليبها ولا تعمق في موضوعاتها وانما الحديث الساذج الذي يديره الناس بينهم في أعمالهم حين يعملون وفي أسمارهم حين يسمرون .

وكان الناس جميعاً يقرأون هذه الصحف ويجدون فيها شيئاً من متاع لأنها تصور لهم فكاهة الشعب ساذجة حلوة وعبث الشعب بقادته وحكامه حين يخلو بعض الناس الى بعض .

وكان الأدباء أنفسهم يتفكهون بقراءة هذه الصحف ويتفكهون بالحديث عنها حين يلتقون لا يأخذونها مأخذ الجد وانما يضعونها حيث وضعت نفسها ، فأصحابها لم يريدوا الا التفكهة والتسلية والإعراب عما يضطرب في نفوس العامة بنفس اللغة التي تنطلق بها ألسنتهم حين يتحدث بعضهم الى بعض .

وليس بد أيضاً من الاعتراف بأن الثورة المصرية بالاحتلال الانجليزي في أعقاب الحرب العالمية الأولى قد فتحت للغة العامية أبواباً واسعة فاندفعت منها وكادت تغلب بعض الأدباء من الشباب على أدبهم .

فهذا التمثيل المضحك الذي راج واشتدت العناية به وعظم الاقبال عليه وكثر الحديث عنه والتفكه بما يجري فيه من النوادر والمضحكات قد كان يؤثر باللغة العامية وينفذ بها الى قلوب الكثرة الكثيرة من النظارة .

وقد كانت الثورة شعبية وكان من الطبيعي أن تكون لها أصداء شعبية أيضاً ، وكان التمثيل من أقوى هذه الأصداء ان لم يكن أقواها .

ولم يكن الأدباء يضيقون بهذا التمثيل ولا يترفعون عنه وربما أحبه بعضهم أشد الحب وأكثر الاختلاف الى ملاعبه يأنس فيها الى هذا الروح الشعبي الحلو ويجد فيها كنوزاً من عواطف الناس ومشاعرهم . وقد تنفعه أعظم النفع حين يعود الى أدبه الرفيع فيسجل فيه بعض عواطف الناس وخواطرهم وأحكامهم . وكان هذا كله طبيعياً لا يأتي عن تكلف ولا يصدر عن اعتداد بالنفس ولا يتأثر بجهل اللغة العربية وأدبها وانما كان الشعب ثائراً فأعرب بعض أبنائه عن عواطفه وأهوائه كما كان يعرب عنها هو في أنديته وأسماره ومواقفه المختلفة .

ولا كذلك ما انتهى اليه تطور الذوق حين انتصف هذا القرن أو حين أوشك أن ينتصف وانما جدت ظواهر لم تكن معروفة أو لم يكن يعرفها الا الأقلون .

وهذه الظواهر جاءت من بعض المذاهب الأوروبية التي وصلت الى مصر في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وصلت اليها في الكتب والصحف ووصلت اليها من طريق الاذاعة أيضاً ، ووصلت اليها من طريق الرحلات والأسفار التي كانت تتاح لبعض الشباب فيلقون الناس ويسمعون منهم ويقولون لهم ويرون الكتب والصحف

فيقرأون وتصادف هذه القراءة أهواء في نفوسهم فيرضون ويستزيدون .

وهذا ايضاً طبيعي : فالكتب والصحف انما كتبت وأذيعت لتقرأ وليتأثر بها من تصادف هوى في نفسه .

وأخص ما تمتاز به هذه المذاهب الأدبية انها تقيم الأدب على مقاييس لم يكن الناس يعرفونها في اوروبا قبل هذا القرن ، ولم تكن تخطر للمصريين على بال قبل الحرب العالمية الثانية .

فالأدب لا يقاس بالجمال ولا يقاس بارضاء الذوق ولا يقاس بتعمق المعاني والآراء وهذا المذهب الفلسفي او ذاك ، وانما يقاس قبل كل شيء بالاعراب عن حاجة الشعوب الى ما يقيم حياتها المادية قبل كل شيء ..

ذلك ان الجائع والظمآن والذي لا يحسن اتقاء الآفات الطبيعية او لا يجد السبيل الى اتقائها لا تعنيه فلسفة ولا تعنيه حكمة ولا يحفل بذوق ولا يهمه ان يتعمق هذا المعنى او ذاك ولا يلذه ان تتخير له روائع الكلام وانما يعنيه قبل كل شيء ان يكشف عنه الضر ويزول عنه الجوع والمرض ويأمن من آفات البرد والقيظ ويظفر بهذا الشعور الذي حرمه الناس اجيالاً طوالاً وهو الشعور بالعدل الشامل الكامل الذي لا يتاح لفريق دون فريق ولا يقصر على طبقة دون طبقة وانما يتناول الناس جميعاً لا يستثنى منهم فرد ولا جماعة .

وربما كان شاعرنا العربي القديم من شعراء القرن الرابع او الخامس للهجرة قد صور حاجة الشعب الى هذا الشعور بحقه في الامن من البؤس والحرمان في هذين البيتين المشهورين اللذين تداولتهما الاجيال العربية الى الآن في مجالس التعليم ولم تجد فيهما الا فكاهة حلوة مع انهما يصوران المرارة المرة والبؤس البئيس ، وذلك حين يقول :

اخواننا طلبوا الصبوح بسحرة
بعثوا رسولهم الي خصيصا
قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه
قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

قوم اذن قد اتاحت لهم الحياة ان يفرغوا للهو وان يصطبحوا قبل مطلع الفجر وهم يطلبون الى صديقهم أن يشاركهم في لهوهم ويقترح عليهم بعض ما يشتهي من ألوان اللذة . ولكن صديقهم بائس لا يستطيع ان يخرج من بيته لأنه لا يجد الكساء . فليس له مطمع في اللهو ولا أرب في اللذة وانما هو في حاجة الى قميص يفيضه على جسمه العاري وجبة يتقي بها قسوة الجو .

والذين درسوا علوم البلاغة يذكرون هذين البيتين ويذكرون مثلاً من امثال التشبيه طالما اضحكهم على مرارته. وذلك حين يذكر اصحاب البيان تشبيه الجائع وجهاً جميلاً بالرغيف .

وفي امثال العرب الجاهليين مثل يصور هذه الحاجة تصويراً رائعاً على غرابته .

فقد اقبل اعرابي من سفر بعيد فلم يكد يصل الى خبائه حتى بشر بغلام ولد له واقبل النساء عليه بهذا الطفل يعرضونه عليه فصاح مغضباً : ماذا اصنع به آكله أم اشربه! قالت امرأته « غرثان فاربكوا له » تريد ان تقول : جائع فهيئوا له طعاماً .

فهذا الاعرابي الذي ملك الجوع عليه أمره كله لم يكن في حاجة الى ان يبشر بهذا الغلام ولا الى ان يراه وانما كان قبل كل شيء محتاجاً الى ان يدفع عن نفسه ألم الجوع .

هذه الحاجة الطبيعية التي يجدها الناس جميعاً ولا يمس لذعها وألمها الا المحرومون المعذبون لم يكن الأدب يخلص لها من دون سائر الحاجات التي يشعر بها الناس ،حاجات القلوب والعقول والاذواق . فضلاً عن حاجات الاجسام الى فنون من الترف واللين .

وقد قوي الشعور بهذه الحاجة وقوي الشعور بهذا الحرمان الذي فرض على كثرة الناس وجدّ بعض الفلاسفة في التماس اسبابه ومحاولة الطب له بتحقيق العدل الكامل والمساواة العامة .

ولم يكد اصحاب هذه الفلسفة ينتصرون حتى اتخذوا من فلسفتهم مقياساً لكل شيء ، مقياساً للأدب وللفن

وللعلم والفلسفة وللسياسة ونظم الاجتماع .

والى هنا يستطيع الادب ان يستقيم مع هذه الفلسفة . فهو مهما يكن من امره لم يوجد في حياة الناس عبثاً وانما وجد لأن الناس احتاجوا اليه فأوجدوه .. أحسوا فأعربوا عما يحسون واضطربت في قلوبهم ونفوسهم الخواطر والعواطف والإهواء فأعربوا عنها وصوروها على انحاء مختلفة من الاعراب بالأدب مرة وبالفن مرة وبالموسيقى مرة اخرى. وهذه الفنون ومنها الادب تتطور بطبعها كلما تطور الناس الذين يعربون بها عن ذات نفوسهم .

فلا غرابة اذن في ان يتجه الادب والفن الى تصوير العدل الشامل والمساواة الكاملة حين يصبح العدل والمساواة اساساً لحياة الناس ، وانما يأتي الخطر كل الخطر على الادب والفن حين يراد الادباء والمصورون والموسيقيون وغيرهم من اصحاب الفنون على ان يخضعوا لسلطان دقيق منظم يوجههم هو الى ما يريد لا الى ما تريد طبيعة العدل او طبيعة المساواة او حاجة الناس الى ان يخلصوا من الحرمان بل الى ان يصبح الادب والفن اداة للاعلان ونشر دعوة بعينها . هنا يفقد الادب ويفقد الفن اخص خصائصهما وهو حرية الاديب وحرية الفنان .

فالادب الذي ينشئه صاحبه عن امر السلطان سواء اكان هذا السلطان متمثلاً في فرد او جماعة ليس ادباً ولا فناً وانما هو صدى لما يصدر الى منشئه من امر فهو لا يصدر

عن القلب ولا عن العقل ولا عن الذوق وانما ينزل على الاديب والفنان لا من إلآه الفن كما كان اليونان يقولون ولا من شيطان الفن كما كان العرب يقولون ايضاً ولكن من فرد او جماعة من الناس اتيحت لهم القوة فسخروه لما يشتهون لا لما يشتهي .

وليس ادل على ذلك من هذه الثورة التى يشهد الناس بعض مظاهرها الآن في بعض البلاد الاوروبية . هناك حيث تقوى المطالبة بالحرية وبحرية الفن خاصة .

ولست ادري أيقرأ اصحاب هذه المذاهب من شبابنا ما يصل الي مصر من انباء هذه الثورة ومن انباء الثورة الادبية منها خاصة ام لا يقرأون ، واذا كانوا يقرأون هذه الانباء فهل يغيرون من مذهبهم في الفن ام هل يظلون على مذهبهم القديم لا ينحرفون عنه قليلاً ولا كثيراً . والتعقيد الذي اصاب اصحاب هذا المذهب يأتيهم من انهم لم يحسنوا درس اللغة العربية ولم يتح لهم اتقان التعبير بها عما يريدون وفي طبائعهم خصب وفي نفوسهم استعداد قوي وفي قلوبهم وعقولهم ما يريدون ان يقولوا للناس ، وليس لهم بد من ان يقولوه لانهم خلقوا ليكونوا ادباء وحرموا مع ذلك ايسر الوسائل الى التعبير الأدبي . وقرروا في انفسهم ان أوجب الواجبات عليهم ان يكونوا صادقين حين يكتبون واخطأوا فهم الصدق على وجهه فظنوا انهم لا يستطيعون ان يصوروا حياة الشعب

الا اذا كتبوا باللغة التي يتكلمها الناس في اداء اغراضهم اليومية فاتخذوا اللغة العامية لغة لأدبهم فأضاعوا قيمته وغضوا منه وجعلوه ادنى الى الابتذال منه الى الارتفاع الذي ينبغي للفن الجميل .

وليس صحيحاً ان الصدق يفرض عليهم الكتابة في العامية فبين ادباء الشباب افراد ممتازون يصورون حياة الشعب اصدق تصوير وابرعه واروعه دون ان ينحرفوا عن اللغة الفصحى التي هي وحدها لغة الادب والتي هي وحدها القادرة على ان تثبت لتعاقب الاجيال واختلاف اللهجات بين الشعوب التي تتكلم اللغة العربية في اقطار الارض كلها.

ويكفي ان اذكر لهم اديبنا البارع نجيب محفوظ فلست اعرف اصدق منه تصويراً لحياة الشعب المصري ولست اشك في ان كل قارىء او سامع لقصصه يفهم عنه في غير مشقة مهما تكن بيئته ومهما يكن حظه من الثقافة والتعليم وهو على ذلك يكتب بلغة فصيحة لا غبار عليها ويرتقي بقصصه احياناً الى منازل الشعر الرفيع دون ان يشق على قارىء او سامع في شيء مما يكتب او يقول .

ليس حتماً اذن ان يكتب الاديب باللغة العامية ليكون صادقاً وليس حقاً ان اللغة العامية تستطيع ان تكون لغة الجمال الادبي الرفيع ، وليس حقاً ان تصوير الحاجة الى العدل والمساواة يفرض على الادباء الاسفاف والابتذال . وقديماً قيل خير الأمور أوسطها .

فليعد ادباؤنا من الشباب النظر في قضية الادب وما اشك في انهم سيلائمون بين ما يريدون من حماية الشعب من الحرمان وبين الادب الرفيع وسيهتدون ان صدقت النيات وصحت العزائم الى قصد السبيل وسيعيدون الى الادب العربي المعاصر نضرته التي اوشكت ان يدركها الذبول .

# هارب من الأيّام

اعترف بأن عنوان هذه القصة وقع في نفسي موقع الغرابة . فليس الهرب من الأيام شيئاً يتاح للأحياء مهما يفعلوا الا ان يفرضوا على انفسهم الموت او يفرضوا عليها الفعلة المطلقة المطبقة .

فالانسان الحي اسير الزمن يدخل فيه منذ تشيع الحياة ولا يخرج منه الا حين تنقطع الاسباب بينه وبين الحياة او حين يضطر نفسه الى الذهول الشامل الذي يصرفه عن كل شيء ويقطع الصلة او يخيل الى صاحبه انه يقطع الصلة بينه وبين الزمان والمكان وما يتعاقب فيهما من الاحداث وما يلم بالاحياء والاشياء بينهما من الخطوب .

وأنا اقدر ان الهارب من الايام في هذه القصة هو هذا العمدة الذي جعله الكاتب محـــوراً تدور الاحداث حوله

والذي انتهى في آخر القصة الى ان يترك منصبه ويهجر القرية التي كان يدير امرها متصلاً او موقوتاً ، ولكن هذا العمدة لم يهرب من الايام وانما هرب من القرية التي لم يحسن القيام عليها .. ورحم الله ابا العلاء الذي انبأنا بألا مهرب من الزمان للكائن الحي ما دام حياً وذلك في بيته الرائع الخالد :

ولو طـــار جبريل بقية عمــره
من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

وأكبر الظن ان هذا العنوان انما راق المؤلف لأن فيه شيئاً من الغرابة والغموض يروعانه هو اولاً ويروعـــان كثيراً من قرائه بعد ذلك وان كان شيء منهما لم يرعني . ولو اني اطعت العنوان لانصرفت عن قراءة القصة ولحرمت نفسي متعة قيمة حقاً . فقد اتيح للاستاذ ثروت اباظة حظ حسن جداً من الاجادة مكنه من ان يفرض عليك المضي في القصة اذ بدأتها حتى تبلغ غايتها بل مكنه من ان يفرض علي أنا قراءتها مرتين لم اباعد بينهما في الزمان لأني وجدت فيها روحاً عذباً يجري في ألفاظها واسلوبها وترتيب الاحداث فيها واستخراج بعض هذه الاحداث من بعض في غير تكلف ولا تصنع ودون ان يعنف بالقارىء او يثير امامه ضروب المشكلات التي تقفه عن القراءة هنا او هناك .

وانما القاريء يمضي في قراءته مضياً يسيراً يوحي اليه

بأن الكاتب نفسه قد مضى في كتابة قصته مضياً يسيراً ايضاً لم يجد فيه شيئاً من عناء او هو قد اوجد العناء كل العناء ، ولكنه استأثر به ولم يظهر القارىء على شيء منه شأن الكاتب المطبوع الذي يجد ويكد ويشقى بالجد والكد فيما بينه وبين نفسه ليقدم الى قارئه آخر الأمر أثراً ادبياً قيماً ينعم بقراءته دون ان يحس في هذا النعيم جداً او كداً او شقاء .

وما اظن الواقعيين بين كتابنا من الشباب يرضون عن هذه القصة كل الرضى فهي لا تصور الواقع كما يصورونه وكما يحبون ان يصوره غيرهم من الذين يعرضون لكتابة القصة خاصة او للانشاء الادبي بوجه عام .

ذلك ان القصة واقعية في تفصيلها ولكنها ليست واقعية في جملتها ولا في غايتها .

فهي تعرض عليك قرية هادئة مطمئنة ينعم اغنياؤها بالعيش ويشقى فقراؤها بالعيش ايضاً ولكنهم قد تعودوا شقاءهم وألفوه فهم لا يشكون منه ولا يظهرون الضيق به ، قد عرفوا ان من طبيعة الحياة في قريتهم ان ينعم الاغنياء ويبتئس الفقراء وهم لا يريدون ولا يستطيعون ان ينكروا طبيعة الاشياء ولا ان يضيقوا بما قسم الله بينهم من الحظ .

واسم القرية نفسه يوحي بهذا فهي قرية السلام .

وانت ترى اول ما ترى عمـــدة القرية وقد افاق من نومه آخر الليل واول النهار وهو عجل يحرص على شيئين اشد الحرص اولهما ان يصلي صلاة الفجر قبل ان يفوته

وقتها وهو من اجل ذلك يتعجل الخادم لتحضر له وضوءه قبل ان تفوته الصلاة وقد ازدحمت في نفسه امور الدين وامور الدنيا ما اباح الله منها وما حرم ، يرى هذا كله طبيعياً لا غرابة فيه فهو يجري اثناء الوضوء لسانه بهذه الادعية التي يرددها المسلمون حين يتوضأون ولكنه يقطع هذه الادعية بين حين وحين بالسؤال عن زوجه وعن ابنته وعن صالح هذا البائس الذي وعده برشوة من الدجاج لأنه اصلح الأمر بينه وبين زوجه التي كانت مغاضبة له .

اما الأمر الثاني الذي يحرص عليه اشد الحرص فهو ارضاء حاجته الى الافطار وهو يسأل عما يقدم اليه اذا أتم صلاته من الألوان والخادم تنبئه بذلك في شيء من التفصيل كأنها تريد ان تثير فهمه وكأنها تستحضر ما سيصيبها من الطعام اذا فرغ العمدة من افطاره .

والعمدة يؤدي صلاته ويستقبل طعامه تحمله اليه ابنته درية ذات الجمال الرائع والحسن البارع والرجل فرح بطعامه مبهور بجمال ابنته لا يخفي حرصه على ان يجد لهذه الفتاة النضرة زوجاً غنياً موفوراً ؛ ولكن صوتاً يرتفع بالدعاء من وراء النافذة هو صوت كمال هذا البائس الذي يتكفف الناس ويصيب طعامه اذا اصبح كل يوم في بيت العمدة وهو البطل الأول من ابطال هذه القصة تتكشف عنه الأحداث فجأة فهو ذليل يدعو للناس جميعاً بالثراء والسعادة وطول العمر ليظفر منهم بالعطاء القليل حيناً وبالزجر والانتهار

احياناً وبالسخرية والازدراء دائماً وهو حاقد اشد الحقد على هؤلاء الاغنياء الذين يعيشون في السعة وينعمون بطيبات الحياة على حين لا يجد هو ما يقيم أوده الا بالجهد والمشقة وابتذال ماء الوجه والالحاح في مسألة الكرام والبخلاء .

وهو يطوف في القرية منذ يصبح الى ان يمسي لا عمل له الا ان يستجدي من جهة وينبيء اهل القرية بما يجري فيها من احداث الخير والشر ومن شئون الموت والزواج خاصة . وهو لا يصيب صدقة من احد الا استنزل عليه الخير بلسانه وتمنى بقلبه ان تغوله الغوائل وان تصب عليه الخطوب . وهو يشعر بأنه على حظ من القوة في جسمه ومن الذكاء في عقله وبأنه اجدر بالغنى والسعة من هؤلاء الاغنياء الاغبياء الذين يتكففهم والذين يستأثرون من دونه بالنعيم .

كذلك يقضي نهاره فاذا جنه الليل مضى الى جماعة من الرفاق يجتمعون عند احدهم على الحشيش فيجلس بينهم خادماً يتملقهم ويأخذ بحظه مما هم فيه . وهو لا يقبل كل صباح على بيت العمدة ليفطر فحسب بل ليستمتع كذلك من فتاة البيت بنظرة يرفعها اليها ونظرة اخرى تلقيها الفتاة اليه . فهو لهذه الفتاة محب وهو بها كلف مشغوف ولكنه يائس وأين هو منها وأين هي منه . انما مكانه منها مكانه من الشمس لا يستطيع ان يرقى اليها ولا تستطيع الشمس ان تنزل اليه .

وكما صور الكاتب هذا الشخص الأول من اشخاص القصة تصويراً دقيقاً كل الدقة ، رائعاً كل الروعة فهو قد صور سائر اشخاص القصة على هذا النحو من الدقة والتحقيق . فهذا العمدة الذي يأمر في بيته وينهى ويأمر في قريته وينهى ايضاً يهابه الناس جميعاً ويشعر هو بهيبتهم له واشفاقهم منه . هذا العمدة نفسه خائف وجل من المأمور يرهبه ويتملقه ويتقي شره ويبتغي رضاه اكثر مما يعمل معه أهل القرية .

وهو يقبل الرشوة من الناس ويغريهم بتقديمها اليه ولكنه هو ايضاً يرشو المأمور ويحسن اغراء المأمور له بالرشوة . فهو يأخذ ممن دونه ويعطي من فوقه وهو بذلك راض واليه مطمئن ، وهو يدير أمور القرية على هذا النحو من الأخذ والعطاء يخيف ويخاف ويأخذ الرشوة ويعطيها . وكل ما يعرض عليك الكاتب من صور للأشخاص والاشياء دقيق متقن على هذا النحو .

فالقصة من هذه الناحيـــة لا تعرض عليك الا صوراً واقعة يعرفها كل من عرف القرى في بلادنا ولا سيما في بعض الاوقات وفي بعض الظروف .

ولكن القصة لا تلبث ان ترقى عن الواقع شيئاً . فهذا البائس المتكفف الذي اذله البؤس وأكل قلبه الحقد لا يتمنى شيئاً كما يتمنى ان يصبح غنياً موفوراً ورث حياته البائسة هذه من ابيه وورثها ابوه عن جده لكنه يطمع في ان يكون

خيراً من ابيه وجده وهو لا يجد الوسائل الى الغنى الا ان يصبح فاتكاً يقتل ويسرق ويروع الآمنين . وهو لا يسأل الله الا شيئاً واحداً هو ان يتيح له اداة من ادوات الفتك .

وهو يلتمس الوسيلة الى هذه الاداة فلا يجدها حتى يظفر بها ذات ليلة في مجلسه ذاك مع رفاقه اولئك على الحشيش فبين هؤلاء الرفاق فاتك معروف وهو منصور الدفراوي الذي قتل فاتكاً مثله منذ ايام بأمر من كبير يعيش في قرية مجاورة . ورفاقه يسألونه في ليلتهم تلك كيف قتل صاحبه وكيف أفلت من النيابة وكيف اخفى سلاحه ويعرفون منه بعد إلحاح في السؤال انه اخفى السلاح في قبر اخته هناك في تلك المقبرة التي يعرفونها ، ولا يسمع كمال هذا الحديث حتى يمتلىء قلبه رضى وأملاً .

وفي القرية مأذون صوره الكاتب فبرع في تصويره فهو جماع للمال حريص عليه يؤثر التفريق بين الازواج على الجمع بينهم لأنه اذا فرق بين زوجين اخذ اجر الطلاق ثم اتيح له ان يزوج الرجل وان يزوج المرأة فيأخذ على كل زواج اجراً . فالطلاق اربح له وأجدى عليه من الزواج اذن وهو لا يجمع بالزواج بين اثنين الا وتمنى ان يكون يوم الفراق بينهما قريباً . وكلما وقع اليه شيء من مال اضافه الى ما ادخر . ثم هو لا يأمن على ماله الخزائن او المصارف وانما يحمله دائماً في منطقة يديرها حول جسمه من دون ثيابه . يحس هو ثقلها ويجد دفئها وينعم بجوارها المتصل .

وقد خرج المأذون ذات مساء ليفرق بين زوجين في قرية بعيدة وعاد الى قريته وقد اظلم الليل ولكنه يسمع في الطريق صوتاً مروعاً يدعوه الى الوقوف فاذا همّ ان يمضي روعه الصوت مرة اخرى فوقف وقد ملأه الفزع ولا يكاد يقف حتى يحس برد السلاح على قفاه ويسمع الصوت يدعوه الى ان يعطي ما معه من المال . فاذا همّ ان يمتنع خيره الصوت بين المال والحياة فيختار الحياة آخر الأمر وينزل عن ماله ويعود الى اهله مسلوب المال والصحة والعقل جميعاً .

ويتصل هذا النوع من الارهاب مرة ومرة حتى تمتلىء قرية السلام رعباً وذعراً ولا يجد العمدة سبيلاً الى استكشاف هذا الشيطان الذي روع القرية بعد أمنها فأرق ليلها ونغص نهارها وأفسد امرها كله . والمأمور يطالب العمدة بالمجرم وينذره بالوقف ان لم يدل عليه .

واذا كان العمدة لا يعرف هذا المجرم فالقارىء يعرفه حق المعرفة فهو كمال الذي يتكفف الناس في النهار ويسلب الاغنياء اموالهم اذا كان الليل . وقد جلس كمال الى رفاقه يتداولون بينهم الحشيش ذات ليلة ويتحدثون في امر القرية وما ألمّ بها من الهول ولكن مجلسهم ذاك لا ينقضي حتى يكون كمال قد اقنع رفاقه الاربعة بأن يكونوا مثله قطاعاً للطريق يسلبون الاغنياء ويروعون الآمنين ويتخذونه لهم رئيساً .

وهم يفعلون بعد ان اقسموا على المصحف ليكتمن السر وليسمعن للرئيس وليطيعن امره في غير تردد ولا جدال .

وقد وضع كمال لهذه القصة قاعدة غريبة كل الغرابة فنأى بالقصة عن الواقع كل منأى فهي تأخذ من الاغنياء لترد على الفقراء اقل ما تأخذ وتستأثر بسائره تتخذ الخير والبر وسيلة الى الاجرام والاثم . تريد ان ترضي الفقراء على حساب الاغنياء في ظاهر الأمر وتريد ان تعز اولئك وتسلب هؤلاء في حقيقة الأمر . ولا تلبث العصبة ان تفرض الاتاوة على كل قنطار من القطن يباع وعلى كل ما يمكن ان تفرض عليه الاتاوة ولا تتردد في قتل من لا يستجيب لها من الذين تفرض عليهم اتاوتها . وقد قتلت بالفعل مرة فملأت القرية فزعاً وهلعاً حتى اذعن المالكون لأمرهــا . وكان العمدة نفسه بين المذعنين وان اخفى تأديته للاتاوة محافظة على ظاهر من احترام هيبة الحكم والسلطان .

وجعلت الألسنة تنطلق بالثناء على « جماعة الخير » هذه والدعاء لها في الاعلان وتكتم القلوب بغضها ومقتها واستعداء الله عليها في اعماق الضمائر . وأصبح كمال غنياً موفوراً قد ظفر بارضاء حاجته الى الغنى وبارضاء نفسه من اذلال الاغنياء الذين كان يتحرق حقداً عليهم وحسداً لهم .

ولكن فرداً واحداً من اهل القرية يأبى ان يذعن لأمر المجرمين ويزمع ان يخرج قناطيره القليلة من القطن الى المدينة سراً في ظلمة الليل فيبيعه ويعود بثمنه آمناً ، ولكن العصبة فطنت له فتربصت به في الطريق فقتلته .. وكان العمدة وأحد الخفراء عائدين من المحطة فسمعا صوت السلاح

واستخفيا ولكنهما استطاعا ان يريا شخص القاتل وأنبأ العمدة المحققين بما رأى وشهد الخفير وقبض على القاتل .. وافتضح بعض امر الجماعة فأزمع كمال ان يروع العمدة حتى ينكر ما اثبت في التحقيق . ووجد الوسيلة الى ترويعه فاختطف ابنته تلك التي احبها واستيأس منها وهو لا يزال لها محباً ومنها يائساً فهو لا يريد بها شراً وهو لا يطمع منها في شيء ولكنه يأمر الذين كانوا يصحبون الفتاة حين اختطفت ان ينبئوا اباها بان ابنته سترد عليه آمنة يوم يعدل امام النيابة عما اثبت في محضر التحقيق .

ويلجأ العمدة بعد خطوب الى ذلك الكبير الشرير الذي يقيم في قرية مجاورة والذي اتصلت المودة بينه وبين المجرمين ليرد عليه ابنته فيعده بذلك . ويتقدم الى اصدقائه في ان يردوا الفتاة على ابيها لأنه محتاج اليه في الانتخابات المقبلة . ويأبى الاصدقاء اشفاقاً على انفسهم وعلى زميلهم ذلك السجين ويخرجون وقد انتقض الود بينهم وبين صديقهم ذلك الكبير الشرير . فهم قد اضمروا قتله من ليلتهم وهو قد امر رجاله بقتلهم من ليلتهم ايضاً وتكون موقعة بين الجماعة وبين رجال الكبير الشرير فتقتل « الجماعة » وترد الفتاة على ابيها ويعود الأمن الى القرية . وتنتهي هنا قصة الروع ، فتنتهي معها قصة اخري لحب لم نشر اليه .

ففي القرية فتى من ابناء الاغنياء قد اتم التعليم العالي او كاد يتمه وأبوه صديق للعمدة وبين الفتى والفتاة حب

قديم يرجع الى الطفولة وقد طلب الفتى الى ابيه ان يخطب الى العمدة ابنته فرفض العمدة الخطبة لانه يريد لابنته زوجاً اوسع ثراء وأعظم جاهـاً من ابن صديقه . ولكن قصة الروع تنتهي فتنتهي معها قصة الحب لأن العمدة يقبل الفتى صهراً له ويرشحه مكانه عمدة للقرية ويزمع السفر الى القاهرة هارباً من القرية ومما لقي فيها من روع لا هارباً من الأيام كما ظن الكاتب .

وقد لخصت لك هذه القصة في اطالة شديدة وفي ايجاز اشد منها . لم اجد بدأ من الاطـالة لأبين لك ان القصة واقعية في تفصيلها نائية في جملتها وفي غايتها عن الواقع . كل التفصيلات يعرفها الناس ويرون اشباهاً لها في حياة بعض القرى احياناً ولكن هذه الجماعة التي تأتلف لتأخذ من الاغنياء وترد على الفقراء ليست من واقع الحياة في شيء . ليس من واقع الحياة ان يتخذ الناس الاثم والمنكر وسيلة الى الخير وان يتخذوا هذا الخير نفسه وهو اعطاء الفقراء وسيلة الى اقتراف الجرائم والآثام .

كل هذا قد ابتكره خيال الكاتب الشاب ابتكاراً وليس عليه بذلك بأس ، فمن حق الكاتب ان يستجيب لخياله حتى حين ينأى به عن الواقع شيئاً . ولكن ليس للكاتب ان ينسى ان قصته تنشر على الناس فيقرأها منهم الراشدون والقاصرون ويقرأها منهم العقلاء والاغرار وقد ينخدع بعض هؤلاء عن بعض ما يقرأون . وقد يصادف من نفوسهم

مواطن الضعف وقد يورطهم ذلك في بعض ما يسوؤهم ويسوء الناس بهم . والكاتب مسؤول امام ضميره اولاً وامام « الجماعة » التي يكتب لها ثانياً . فليس له بد من ان يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر او يذيع . ولست ادري من اين اشتق خيال الكاتب لهذه الصورة ، صورة العصبة الآثمة التي تتخذ الاثم وسيلة الى البر وتتخذ البر نفسه وسيلة الى الاثم . ايمكن ان يكون قد قرأ كثيراً أو قليلاً من اخبار الصعاليك في حياة الجاهلية وفي بعض الامصار العربية بعد الاسلام . اولئك الذين كانت تضيق بهم سبل العيش ويكرهون النظام الاجتماعي الذي لا يتيح لهم تحقيق ما يطمحون اليه فيخرجون على النظام ويستبيحون لأنفسهم النهب والسلب والقتل احياناً ويعيشون في عزلة عن الجماعة لايدنون منها الا ليروعوها ويرزأوهـــا في اموالها ثم ينأون عنها ليعيشوا في عزلتهم اجواداً كراماً يؤمنون الخائف الذي تنقطع به الطريق ويطعمون الجائع ويعطون المحروم . يرون هذا كله مكملاً لمروءتهم ومحققاً لرجولتهم ويفاخرون بهذا كله في شعرهم الذي حفظت منه كتب الأدب اطرافاً لا بأس بها .

ولكن عصر الصعاليك قد انقضى فنحن لا نعيش في البادية ولا في القرن الأول من الهجرة وانما نعيش في الحاضرة ونعيش في القرن الرابع عشر للهجرة وما ينبغي لعصر الصعاليك ان يعود وهو لم يعد والحمد لله . فيكون الاستاذ قد قرأ شيئاً من اخبار هؤلاء الصعاليك الذين يأخذون من الاغنياء

ليردوا على الفقراء .

ولا يغضب الكاتب فقد كنت احب له ان يجد صيغة اخرى غير الاخذ من الاغنياء والرد على الفقراء لأن هذه الصيغة مكانها الملحوظ في فرض الزكاة وتحبيب الصدقة الى الناس .

وانا بعد هذا معجب بمنهج الكاتب في قصته ومذهبه في هذه الكتابة باللغة الفصيحة النقية التي لا تشق على قارىء مهما يكن حظه من الثقافة وهي لا تنأى مع ذلك عن اللغة التي تليق بالادباء ولا تنحط بهم الى الاسفاف والابتذال .

وانا واثق بان كاتبنا الشاب قد بدأ طريقاً طويلاً اصابه شيء كثير من النجح في اولها وما اشك في ان حظه من النجح والتوفيق سيزداد ويعظم كلما مضى الى امام .

فهرست

٢٥٠ق ل ــ ٣٢٥ ق.س ــ ٥٠٠ مليم

مطابع دار العلم للملايين
بيروت